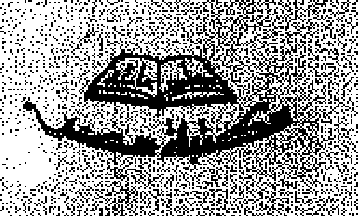


نجيب محفوظ

التنظيم السري

مطبوعات مكتبة مصر



تأليف

نجيب محفوظ

الحائز على جائزة الدولة التقديرية

وجائزة نوبل العالمية للآداب لعام ١٩٨٨

دار مصر للطباعة

٣٧ شارع كامل صدقي

التنظيم السري

فى ركن النادى الذى يجمعنا للسمر تنطلق الآراء كالمفرقعـات . لا تترك كبيرة ولا صغيرة حتى تمزقها جدلا . وتتصارع المشروعات ووسائل تنفيذها حتى تبح منا الأصوات إلا ذلك الصديق القديم . لا يشترك فى همومنا الجدية برأى أو بلا أو بنعم . قد يثرثر فى الأمور العابرة ولكنه عند الجد يلوذ بالصمت . يغيب عنا بنظرة شاردة . يتخذ من هامش الحياة وطنا . على ذلك لم يخرج من قلوبنا لمودته الدافئة وجذوره المتأصلة فى منابتنا . ويوما اتصل بى تليفونيا فى الديوان وقال لى :

ـــ أود مقابلتك غدا صباحا فى محل توت عنخ آمون .

فوافقت من فورى ، وفى الموعد جلست أنتظره . وهلّ علىّ دون تأخير ، فرحنا نشرب القهوة ونتبادل نظرات التمهيد ، وهو يرنو إلىّ جادا حتى خيل إلىّ أنه استعار شخصية جديدة تماما . وقرب رأسه منى وقال :

ـــ فكر قبل أن تتكلم ، فالكلمة هنا ارتباط أبدى .

فأثار اهتمامى لدرجة لم أتوقعها ، وحدجته بنظرة داعية للمزيد من الإفصاح . قال :

ـــ لم يكن مفر من هذا التحذير ، ثم أدخل فى الموضوع رأسا !

فقلت واهتمامى يتصاعد :

ـــ ادخل .

فكور قبضته الضخمة وتساءل :

— آنست منك رغبة فى العمل ؟

فلمحت أول بصيص نور ، وسألته فى دهشة :

— كيف عرفت ذلك ؟

— من متابعتى للمناقشات !

فقلت بدهشة أكثر :

— حسبتك لا تنتبه إلى أقوالنا !

فابتسم ولم ينبس فقلت :

— هات ما عندك .

فاعتمد على المائدة بمرفقيه وسألنى :

— أتعنى ما تقول حقا ؟

فقلت بصدق :

— كل كلمة ، كل كلمة !

— إذن فأنت ترغب فى العمل ؟

أدركت مغزى تحذيره ولكن وعائى كان طافحا بما فيه ، فقلت مندفعا إلى مصيرى :

— أجل .

— العمل — بخلاف الكلام — باهظ التكاليف .

فقلت بتحد :

— أدرك ذلك تماما .

فقال ببطء :

To: www.al-mostafa.com

ـــ الندم فيما بعد غير مجد .

ـــ أعتقد ذلك .

ـــ والتراجع يعنى الموت .

ـــ طبعا .. طبعا .

فقال بارتياح :

ـــ صدقنى حدسى .

فقلت وأنا أغالب انفعالاتى الداخلية .

ـــ يا لك من داهية .

فقال كالمعتذر :

ـــ هى الحياة .

فقلت بشيء من الحدة :

ـــ أو هو الموت ، ليفعل الله ما يشاء .

ـــ بداية طيبة .

فقلت بشوق :

ـــ هات ما عندك .

فقال بسرعة :

ـــ ما لدى قليل ، أقل مما تتصور ، أسرة مكونة منى وأربعة آخرين ستعرفها مساء ، عدا ذلك لا أعرف إلا شخصا أتلقى منه الأوامر ..

ـــ ولكن الأسرة وحدة فى كل ، وعلى رأس الكل رئيس ، ماذا تعرف عن ذلك ؟

فقال ببساطة :

— لا شيء ...

فتساءلت فى حيرة :

— ونظل نعمل فى الأسرة يحيط بنا الظلام ؟

— ربما ، وربما انتقلت إلى أسرة من مرتبة أعلى .

— ومتى أصل إلى مركز الرئيس الأعلى ؟

— علمى علمك ، المهم العمل والهدف ؟

وتفحصنى بنظرة ثاقبة وقال :

— إنهم أدرى بما يحقق الأمان والنجاح .

ومر لى نهار لم يمر لى مثله فى حياتى . كمن يبدل لحمه ودمه وخلاياه وروحه . كمن يولد فى دنيا جديدة ذات قوانين جديدة . كمن يودع الطمأنينة واللامبالاة ليستقبل المغامرة والموت . لم يبق لى من الماضى إلا الاسم وحتى هذا سرعان ما يتغير . وفى المساء انعقد أول اجتماع للأسرة فى بيت صغير بمصر القديمة . كنا خمسة ، على رأسنا الصديق القديم المرموز إليه بـ « ا » . لم لا ؟ لقد أصبحنا رموزا لتحقيق أهداف . وجلس على رأس المائدة ينقل عينيه بيننا ، مكتسيا مهابة جديدة وتأثيرا نافذا . قال :

— أرحب بكم فى أسرتنا التى جمعتنا على الخير ، هى التى أخرجتنا من العبودية وطهرتنا من عبادة الأصنام ، فلنجعل من الكمال زينتنا ومن الحب رابطتنا ومن الطاعة شعارنا ولنعمل فى نطاق ما نعرف ولا نسأل عما لا نعرف — واحذروا الخطأ فلا خطأ يمر بلا عقاب .

وتتابعت الاجتماعات لمذاكرة الأهداف والوسائل ، أو لمعرفة الأجوبة

عن بعض أسئلة عاجلة ، ومناقشة الاقتراحات . وطيلة الوقت استحوذ رئيسنا المباشر « ا » على إعجابى بعقله الراجح وحدسه الصادق وخلقه المتين مع قوته الجسدية الخارقة كأنما هو بطل من أبطال المصارعة الحرة ، وإن ساءتنى جديته الصارمة التى تضن بالابتسامة فضلا عن الدعابة . وعزيت نفسى قائلا إنه لولا ضرورة هذه السجايا لعمله ما اختاره الرئيس الأعلى للجماعة الذى يضع ولا شك الرجل المناسب فى المكان المناسب ، والذى تتسلل إلينا أوامره من مثواه المجهول عبر مندوبين مجهولين كذلك ، حتى إن « ا » نفسه لا يعرف من ذاك الجهاز المعقد إلا فردا واحدا . وقد رأيته يلوذ بالصمت فى أعقاب مناقشة ثقيلة جرت فى أحد الاجتماعات فقلت بعفوية :

ـــ ألا يحسن أن يجتمع رؤساء الأسر بالرئيس الأعلى فى اجتماعات دورية لنطمئن على سير الأمور ؟

فاستيقظ من صمته راميا إياى بنظرة صلبة ثم قال :

ـــ ارتكبت عدة أخطاء دفعة واحدة !

وراح يعدد على أصابعه قائلا :

ـــ قطعت علىّ تفكيرى ، تدخلت فيما لا يعنيك ، خالفت وصية من الوصايا !

فهالنى الأمر وقلت معتذرا :

ـــ إنى آسف يا سيدى .

ـــ لا بد من العقاب ، وإنى أحكم عليك بالامتناع عن التدخين شهرا كاملا ابتداء من هذه الساعة !

وصدمنى الحكم ولكنى لم أنكص عن تنفيذه — رغم ثقله — بوازع من ضميرى . على أننا كنا نشعر فى الوقت نفسه بأننا موضوعون تحت مراقبة خفية يمارسها جهازنا الغامض ، بالإضافة إلى مطاردة الشرطة المستمرة . هذا ما تطوعنا للخدمة فيه بدافع تلك الرغبة الجنونية المقدسة فى تغيير الكون . حسبنا أن نؤمن بأننا ضمن الصفوة المختارة بدقة رسم خطوطها ذلك الرئيس الأعلى الذى صار — هو وجهازه — أسطورة يتحدث عنها الناس فى كل مكان ، وتنشط دوائر الأمن العام إلى اكتشافها بكل سبيل انطلاقا من حوادثها المتكررة ومنشوراتها السرية المثيرة . وما أدرى يوما ونحن مجتمعون حول المائدة إلا و « ا » ينظر ويسأل :

— أين القلم الرصاص الذى وجدته أمامك فى الجلسة السابقة ؟

فقلت ببراءة :

— لعلى أخذته معى .

فسأل ببرود :

— من أين علمت أنه وزع للامتلاك ؟

فقلت فى استياء :

— سأرده فى المرة القادمة أو أبتاع بديلا عنه .

فقال ببرود أشد :

— نحن نعتبر ذلك نوعا من السرقة !

فقلت بغضب :

— لقد بعنا الحياة نفسها دون مقابل فكيف تتهم بسرقة قلم رصاص ؟

فقال بهدوء هو أشد من الحدة :

— لا تمن علينا بالتضحية ، فإنك لا تضحى من أجلنا ولكننا نضحى

جميعا من أجل الهدف وقد حكمت عليك بألا تستعمل يدك اليسرى لمدة شهر !

ركبني هم ثقيل فذهبت إلى مطعم « فلسطين » بالسكة الجديدة لتناول العشاء . وجلست إلى أقرب مائدة إلى فتاة وحيدة . لاحظت رغم هى أنها لم تطلب شيئا و لم يقترب منها الجرسون . ولاحظت أيضا أنها تنظر نحوى بجرأة وثبات لا يصدران إلا عن امرأة هوى . على جمال كانت ولكن منظرها أوحى بالفقر ، بل والجوع أيضا . قالت لى عيناها « ادعونى للعشاء من فضلك » . ورق قلبى لها فابتسمت وسرعان ما ردت الابتسامة بأخرى مبتذلة . قلت إنها ما زالت تشق طريقها الوعرة ، وأشرت إلى المقعد الخالى أمامى فانتقلت إليه دون تردد . تناولنا عشاء من المكرونة والخبز الجاف فالتهمت طعامها بنهم وبلا حياء . حل الارتياح مكان التوتر فى وجهها ، وتبادلنا الابتسام دون تعارف ، ثم سألتها لأبدد الصمت :

ـــ من هنا ؟

فقالت بنبرة ذات معنى .

ـــ مسكنى فوق المطعم .

لم تكن فى رأسى خطة نهائية فنظرت فى الساعة فسألتنى :

ـــ نقوم ؟

فاستسلمت بلا حماس وبلا فتور فتأبطت ذراعي ومضت بى نحو مدخل المبنى فى عطفة خلفية . لست من مدمنى ذلك ولا من الهواة ولكنها تعرض لعازب . وكانت رقيقة وثرثارة وغير محنكة فدار حديثها حول ضجيج العاصمة . وسألتنى :

ـــ ما ليدك اليسرى ؟

فقلت بامتعاض : روماتيزم خفيف .

فقالت مجاملة :

ـــ ولكنك فى عز الشباب .

فقلت بضيق :

ـــ أمراض عصرنا لا تفرق بين شيخ وشاب .

وغادرتها وهى تقول :

ـــ لتكن أولى الزيارات لا آخرها ..

وصادفتنى متاعب متلاحقة فى البيت والديوان لعدم استعمال يدى اليسرى بالإضافة إلى سوء المزاج الناتج عن الامتناع عن التدخين . وتمخض اجتماع الأسرة التالى عن مكدرات جديدة لم تكن فى الحسبان ، إذ التفت « أ » نحوى قائلا :

ـــ ما زلت ماضيا فى طريق الضلال !

فنظرت إليه مبهوتا فقال :

ـــ الزنا بعد السرقة .

فالتهبت وجنتاى وغضضت بصرى ، فقال :

ـــ كأنك لا تدرك خطورة زلتك ؟!

فقلت باستماتة :

ـــ هفوة شخصية لا تمس سلوكى العام .

ـــ هراء ، المرأة أشد خطورة من الشرطة .

فقلت مدافعا :

ـــ الزواج عسير جدا فى هذه الأيام .

فقال ببرود :

— فى الهدف ما يغنى ويسلى عن سواه ..

وواصل عقب صمت قصير :

— إنك كثير الجدل فمتى تتعلم الطاعة ؟

وفكر قليلا ثم قال :

— مراعاة لظروفك سأكتفى بتغريمك مائة جنيه تؤديها على أقساط !

وجدتنى فى مأزق . كدت أندم على فكرة التطوع نفسها ولكن لم يغب عنى أن التراجع الآن يعنى الموت . وتعزيت بما أحرز من نجاح حين عرض الآراء وتنفيذ ما أكلف به من أعمال . وتخيلت رئيسنا الأعلى — قياسا على « ا » — فى صورة عملاقة جبارة جديرة حقا بالإجلال والخوف . ومازج شوقى إلى معرفته رغبة فى البقاء بعيدا عن بابه . ولم أخطىء بعد ذلك ، وتقدمت فى الدرس والتدريب تقدما محمودا سمعت من أجله الثناء تلو الثناء ، فتلاشى الحرج وذكرى العقوبات . وفى ختام اجتماع هام للأسرة ، استبقانى « ا » ، ووضع أمامى مظروفا مغلقا وقال :

— تسافر إلى (...) وتقابل (...) الكاتب بالمحكمة وتسلمه الرسالة خفية وتعمل بما يشير به عليك .

كنت تدربت تماما على وسائل معرفة المكان ومواعيد القطارات والاتصالات الخفية . وشرعت فى العمل خطوة فخطوة حتى سلمت الرسالة للرجل . وأشار على بالنزول فى فندق بالبلدة والانتظار . وفى الصباح جاءتنى سيارة فورد قديمة ، ودعانى السائق إلى الجلوس إلى جانبه وانطلق بها بلا تعارف أو كلام . وفى وسط الطريق قال :

— فى الصندوق الخلفى حقيبة جلدية .

ووقف على مبعدة من البيت الذى تجتمع فيه الأسرة بمصر القديمة . حملت الحقيبة رغم ثقلها وسرت بها نحو البيت . غالبت توترى لدقة الموقف وخطورته ، ثم وضعتها على المائدة أمام « ا » ، وجلست مزهوا وأنا أشعر بأننى هجرت دنيا الناس إلى الأبد . وفتح « ا » الحقيبة فحال غطاؤها بينى وبين رؤية ما بداخلها . ودام فحصه ربع ساعة ثم أغلق الحقيبة وقال :

ـــ أمضيت وقتا فى المقهى ناسيا أن الغريب يلفت الأنظار فى البلدان الصغيرة .

فخفق قلبى متوقعا عقوبة جديدة ولكنه قال :

ـــ ولكنك عبرت البحر بسلام !

فشاع فى نفسى الرضا وامتلأت ثقة وإحساسا بالنصر ، وقمت بأعمال قيمة على مدى غير قصير ، فى وثبات متلاحقة حققت لى مركزا لا بأس به . واستدعانى « ا » ذات يوم فوجدته وحده بحجرة الاجتماع . أجلسنى فى أقرب مقعد إليه وقال لى :

ـــ تقرر أن تفارقنا إلى أسرة جديدة .

نظرت إليه مليا وأنا أغالب انفعالاتى ثم سألته فى حذر :

ـــ أتسمح لى بسؤال أو أكثر ؟

فحنى رأسه بالإيجاب فسألته :

ـــ ماذا يعنى أسرة جديدة ؟

ـــ أسرة الزميل الوحيد الذى أعرفه خارج أسرتنا ويدعى « ب » ، وهى وحدة ضمن وحدات متصاعدة لا فكرة لى عن عددها تنتهى بالجهاز الأعلى .

فداخلني ارتياح وسألت :

ـــ وما نوع العمل فى الأسرة الجديدة ؟

ـــ لا أدرى !

ـــ من الذى رشحنى للأسرة الجديدة ؟

فأجاب ببساطة :

ـــ عملك .

وقام آخذا بيدى إلى حجرة صغيرة داخلية وهو يقول :

ـــ دعنى أقدمك إلى رئيسك الجديد .

وجدناه جالسا ينتظر . ومن عجب أن طالعنى بصورة مناقضة تماما لتخيلى له . تصورته يفوق « ا » فى القوة والصلابة فإذا بى حيال شاب يكبرنى بأعوام جميل المحيا رقيق الحاشية يأسر الناظر إليه بلطفه وعذوبته . كيف يرأس هذا الشاب أسرة هى أقرب فى موقعها من الرئيس الأعلى وعليها مهام ـــ ولا شك ـــ تجاوزها فى الشدة والعنف ؟! . وكيف يضع رئيسنا الأعلى ثقته فى شخصين تقطع الدلائل بتناقضهما الكامل ؟ . ترى متى يتاح لى مقابلة ذلك الرئيس العجيب الذى أقض مضاجع الشرطة وأثار الرأى العام لدرجة الهوس؟. وتبادلت مع « ب » كلمات رقيقة فاستحوذ على حبى من اللحظات الأولى. ومضى بى فى سيارته الصغيرة ١٢٨ إلى حديقة «الوردة البيضاء» بطريق سقارة.

سألته قبل أن ندخل:

ـــ أعندك فكرة عن هذه الحديقة ؟

فدخل مبتسما وهو يتأبط ذراعى . وسرعان ما احتوتنا مقصورة تكتنفها الخضرة والأزهار وتحبو فوقها أشعة الشمس فى مطلع شتاء لطيف . وجدت الأسرة الجديدة بكامل عددها وهى مكونة مثل أسرتى

الأولى من خمس ولكنى عجبت لاختياره مكان الاجتماع فى حديقة سيئة السمعة لا يردها عادة إلا طلاب الحب المحرم . وقلت لعله داهية ذات قشرة ذهبية أو ماء تحت تبن . وشربنا الشاى بسرور وارتياح وهو يقول :

— أهلا بكم فى أسرتنا الجديدة .

وتفكر قليلا ثم واصل :

— لكل منكم سابقته المحمودة المتسمة بالشدة والخطورة ، ونحن الآن بصدد عمل جديد ذى أسلوب آخر ، لا تنكر للماضى ولكننا نستكمله بأسلوب جديد كل الجدة ، وإلا ما دعت الضرورة إلى إنشاء أسرة جديدة ، مستهدفين فى النهاية غاية واحدة ، وإياكم والاستهانة بعملكم الجديد ذى المظهر الخادع ، فمثلكم مثل زارع يرمى فى الأرض ببذرة لا تكاد ترى ، ولكنها ستنمو ذات يوم شجرة باسقة يلوذ بظلها المعذبون فى الأرض ..

وصمت قليلا ثم قال :

— كانت مهمتكم السابقة التصدى للوجه القبيح والانهيال على قبحه بالكلمات الصادقة ، أما مهمتكم الجديدة فهى التغنى بالوجه الجميل المنشود ، حلم اليوم وحقيقة الغد ، ولكن أى أغان وأى ألحان ؟! .. أغانى جديدة وألحان جديدة .

التمع فى الأعين حب استطلاع وهاج فقال :

— سأكون المؤلف والملحن وستكونون المغنين وسأضع فى كل حنجرة اللحن الذى يناسبها !

وضح فى الوجوه ما يشبه الذهول فقال :

— المهمة ظاهرها الترفيه ولكنها تنطوى على جدية فائقة ويحف بها

الخطر من كل جانب .. فليوطن كل نفسه على التضحية .

وقلب عينيه فى وجوهنا متسائلا :

ـــ هل من أسئلة ؟

وفى الحال سألته :

ـــ أنعتبر حديثك من المجاز والرمز ؟

فأجاب ببساطة :

ـــ بل إنه واقع وحقيقة ...

ـــ هل حقا تحفظنا ألحانا لننشدها ؟

ـــ بكل تأكيد .

ـــ لكننا لسنا مغنين .

ـــ كل فرد يستطيع أن يغنى فى حديقة عامة فيسمعه من يشاء أن يسمع .

ـــ من ناحيتى لا أملك أى موهبة غنائية .

ـــ لا يهم . العبرة باللحن أما الأغنية فأغنية حب من لون جديد !

ـــ قد يعتبر الجمهور غناءنا تكديرا لصفوه .

ـــ ربما .

ـــ وقد يسخر منا .

ـــ ربما .

ـــ وقد يعتدى علينا .

ـــ ربما ، ولذلك لا بد من توطين النفس على التضحية ..

فقال زميل منفعلا :

ـــ عملنا السابق أخف رغم عنفه .

فأجاب باسما :

ــ محتمل جدا .

وترددت قليلا ثم قلت :

ــ لدى سؤال وأخاف العقاب .

فقال « ب » بسرعة :

ــ لا موضع للعقاب فى قاموسنا .

فسألته :

ــ وما جدوى الأغانى والألحان والغناء ؟

فقال بهدوء :

ــ أكبر مما تتخيل ..

فسألت مندفعا بشجاعة جديدة :

ــ وهل وافق رئيسنا الأعلى على عمل أسرتنا ؟

فقال باسما :

ــ لسنا إلا أدوات تنفيذ ..

ثم بنبرة حماسية :

ــ اسمحوا لى أن أدعوكم إلى عشاء من الشواء والنبيذ لنتعاهد على الحب والعمل ونحن فى أطيب حال ..

وشرعنا فى الحال فى الحفظ والتدريب ، ثم فى العمل . وتعرضت لحرج ومتاعب لا نهاية لها . آمنت بأن عملى الجديد أشق من القديم رغم إحساسى بأننى أعمل فى جوقة موسيقية تحت إشراف شاعر وملحن فى آن . وعجبت لشأنه ، وعجبت أكثر لشأن رئيسنا الأعلى الذى يستعمل كل هذه الحيل المتناقضة والأساليب المتضاربة لتحقيق أهدافه . واستقرت

فى وجدانى عبارة « ب » : « لا موضع للعقاب فى قاموسنا » ، فشجعنى ذلك على التخفيف من توتر أعصابى بزيارة جديدة لفتاة مطعم فلسطين بعد انقطاع، رغم ما سمعت من إدانة لذلك، وتحذير من المرأة التى هى أشد خطرا من الشرطة ، ورغم علمى المسبق بأن سلوكى لن يخفى عن رئيسى كما لا يخفى سلوك أحد من أفراد الجهاز بعامة . وسرت الفتاة بزيارتى سرورا أنسانى قلقى ووساوسى ، وهدانى إلى اكتشاف جانب رقيق فى قلبها لا يوجد عادة فى حومة الاحتراف . وقال لى « ب » فى أول اجتماع تلا مغامرتى :

— لا اعتراض لى على الحب .

فاشتعل وجهى بالحياء فقال :

— ولكنه دون ما رباط عبء على نقاء القلب ..

ففطنت إلى ما يشير إليه وقلت باستنكار :

— ولكن ..

فقاطعنى :

— لا تستشهد بمأثورات حياة قد أعلنت الحرب عليها !

ثم تحول إلى موضوع الاجتماع كأنما قال قولته الأخيرة فى المسألة .

وجاء زواجى من الفتاة مغامرة لا تقل فى خطورتها عن كبرى مغامراتى التى قمت بها وأنا عضو فى أسرة « ا » وفى ليلة الزفاف أتى « ب » دون دعوة وأهدانى قارورة من أفخر أنواع النبيذ الأحمر . وهمس فى أذنى وأنا معه آخر الليل ..

— صن سرك فى أعماق قلبك وحده .

وواصلت حياتى ما بين الديوان والحدائق العامة وعش الزوجية فوق

مطعم فلسطين . وكان الاجتماع لم يسبق بمثله إذ تخلف عنه لأول مرة أحد الزملاء . وأشار « ب » إلى المقعد الخالى وقال بأسى :

— ألقى القبض عليه .

فذهلت أنفسنا وتغيرت ألواننا فقال :

— لعله تهاون فى الكتمان .

فقال زميل :

— قد يدفعه التعذيب إلى الاعتراف بما يهدد أمن الأسرة .

فقال :

— من أجل ذلك سنؤجل اجتماعاتنا إلى أجل غير مسمى ، وسنختار مكانا آخر . على أنى متيقن أنه سيتحدى الموت قبل أن يعترف !

رجعت إلى وحدتى الأولى . وانسربت إلى نفسى سموم الهواجس والمخارف فتوقعت أن تصل إلى عنقى القبضة الحديدية فى أى وقت من ليل أو نهار . أجل كانت حياة كل زميل مجهولة تماما من بقية الزملاء خارج نطاق العمل المشترك ، ولكن أى ضمان ثمة لذلك ؟! . كانت أيام خوف وضياع . وصادفنى يوما أحد الزملاء فى ميدان العتبة . صافحنى خارقا تقاليدنا الثابتة وقال :

— معذرة ، ثمة أخبار غاية فى الخطورة .

تولانى رعب من قبل أن يفصح واستوضحته بعينى دون لسانى فقال :

— قبضوا على رئيسنا « ب » نفسه !

فهتفت بفزع :

— من أين لك هذا ؟

قال بغموض :

— شائعات تطايرت فى مكان عملى ، والشائعة فى مكان عملى تعتبر خبرا !

تجهم وجهه حتى الظلمة وقال :

— ويقال إنه قتل وهو يستجوب !

هتفت :

— يا للفظاعة ..

فقال :

— وثمة همس عن أن زميلنا المقبوض عليه أولا قد باع نفسه ودل على الرجل ..

فقلت باضطراب :

— يجب أن نهرب .

فقال بحنق :

— لا خوف من ناحيته بعد فقد وجد فى السجن ميتا بالسم والتحقيق جار مع الجميع ..

وتابعت الصحف ولكنها لم تشر من قريب أو بعيد إلى جماعتنا . تركنا فى الظلام ، وانقطعت الصلة بيننا وبين الجهاز ، وانطويت على سرى دون شريك أحاوره أو ألتمس عنده العزاء . واحتوتنى غربة وسط عالم معاد لا أدرى متى ينتشلنى اليأس من العذاب . واستدعانى رئيسى المباشر فى الديوان وسألنى :

— مالك ؟ ، لست كعادتك ، أهو الزواج ؟

فادعيت المرض فقال :

— قم فى إجازة تجنبا لمزيد من الأخطاء .

هربت من الديوان لأسقط بكليتي فى قبضة نفسي . أما زوجتى فأرادت أن تخفف عني بعض ما لمست من اضطرابى فقالت :

— ستكون أبا ياحبيبى .

فتظاهرت بسرور لم أعد أتذكر طعمه أو رائحته . واتجه فكرى إلى رئيس الجهاز الأعلى ، فتساءلت عما يدبر لرتق الفتق الذى مزق جهازه ، كيف يصل ما انقطع ، وهل يعلم بما نعانى فى ضياعنا ، أو يفكر فى التخلص منا حفظا لأمن جماعته كما تخلص من زميلنا الخائن ؟!. وانطوت الإجازة ، ورجعت إلى عملى ، وكلما مر يوم دون مفاجأة أخلدت إلى شىء من الطمأنينة ، حتى بت أعتقد أنى راجع حتما إلى تفاهة الحياة ومرارتها اليومية كفرد من ملايينها الذين يتعذبون ويتشكون ويتصبرون وينتظرون دون جدوى . وقلت لنفسى على سبيل التعزى لعل التفاهة فى النهاية أرحم من الخوف والضياع. وتعاقبت الأشهر حتى خرج وليدى الأول إلى الوجود، ومضيت أنهمك فى مجريات الحياة اليومية . وذات صباح وعقب أبوتى بشهر . دق جرس الباب فذهبت زوجتى لترى الطارق ثم عادت لتقول بدهشة :

— يقول إنه مندوب شركة الشرق للتأمين !

فذهبت بنفسى إلى الباب وسألته عما يريد فقال بصوت عريض ملىء :

— اسمح لى بخمس دقائق ، إنى قادم من أجل ابنك ربنا يحفظه بعين

رعايته ..

وجلسنا فى حجرة الاستقبال متواجهين . كان متوسط الطول متين البنيان أنيق المظهر ، بشوش الوجه كما يجدر بتاجر ، قوى النظرات ، بيده حقيبة وجاءت زوجتى مدفوعة بحب الاستطلاع فانتظر حتى جلست وقال :

— جئت يوم الجمعة لأضمن لقاءك ، ومهمتى هى صميم عملى فنحن نتابع المواليد ونزور الأسر لإقناع الآباء بالتأمين على الأبناء ، ويا بخت من يرى غده فى يومه ..

— أيكلفنا ذلك ما لا نطيق ؟

فأجاب بنبرة مشجعة :

— التأمين أصلا للذين لا يملكون ، وهو درجات ولكل درجته ، وإن بعد العسر يسرا ..

وفتح حقيبته فتناول كراسة أعطانيها وهو يقول :

— إنها حاوية لكافة الأنواع وستجد فيها ما يناسبك إن شاء الله .

ونهض قائما فاصطحبته إلى الباب مودعا . ودس فى يدى ورقة ، وصافحنى وهو يهمس :

— لا علاقة لى بشركة التأمين ، اقرأ ما فى الورقة بعيدا عن عينى زوجتك ، ستجد فيها المكان والوقت فلا تتأخر .

قال ذاك وذهب . وددت لو بقى دقيقة أخرى ليبل ريقى الجاف . هكذا بعثت فجأة واشتعلت روحى بالنار المقدسة من جديد . رجعت إلى الحياة ومعاناة الإحساس المضنى بحمل الأمانة .

وفى الموعد كنت فى بيت عتيق بالقلعة ، يقع فى بقعة فاصلة بين العمران من ناحية وبين مدينة الأموات من ناحية أخرى . وكالعادة كانت الأسرة الجديدة مكونة من خمسة يرأسها « ج » (مندوب شركة الشرق) ، أما الأربعة الآخرون فكان اثنان منهما ـــ أنا أحدهما ـــ من أسرة المرحوم « ب » ، وواحد زاملته فى أسرة « ا » والرابع جديد لم تقع عليه عيناى من قبل . قال « ج » :

ـــ مضى ما يقارب العام دون اتصال .

فقلت من فوزى :

ـــ عام محنة وعذاب .

أما زميلى من أسرة « ب » فتساءل :

ـــ هل عادت أسرتنا القديمة ، أسرة « ب » ، برياسة جديدة ؟

فقال « ج » :

ـــ أسرة « ب » موجودة برياسة جديدة أما هذه الأسرة فهى أسرة جديدة بالنسبة لكم .

وتنحنح ثم واصل حديثه :

ـــ لم يمض العام هدرا ، كلا ، ولكنه مضى فى التحرى والمتابعة والمراقبة ، كان على رئيسنا الأعلى ـــ وهذا محض ظن منى ـــ أن يطمئن إليكم وأن يسبر غور الشرطة وعيونها الشرهة ، وأعتقد أنى تلقيت أوامره فى الوقت المناسب ..

وقلت لنفسى إن هذا الرجل يعنى ما يقول وأنه قادر على ملء الفراغ بالثقة ، وسرعان ما أحببته أما هو فقال :

ـــ أهلا بكم فى أسرتكم الجديدة ، هى الأخيرة أيضا ، يليها مباشرة

الجهاز الأعلى ، ولا أخفى عنكم أنى أتلقى التوجيهات من السكرتير العام نقلا عن الرئيس الأعلى حفظه الله ورعاه .

وأشعل سيجارة ، آذنا بإشارة لنا بالتدخين لمن شاء ، ثم قال :

ـ ولعلكم تتساءلون عن أسلوب العمل ، أول ما أقول إنه يقوم بصفة مبدئية على القواعد المرعية فى الأسرتين السابقتين ، فلا يجوز أن تهمل تجربة ناجحة أثبتت جدواها ، فلا تنسوا ما تمرستم به فى أسرتكم الأولى وما تمرستم به فى أسرتكم الثانية ، بالإضافة إلى ما سيجد ، ولا تنسوا أن جميع الأسر وحدات فى أسرة كبيرة واحدة ذات هدف واحد ورئيس واحد .

وقلب عينيه فى وجوهنا ثم واصل حديثه :

ـ وفى كل أسرة طالبوكم بحب زملائكم فيها ، وهو أول مطلب أطالبكم به فى نطاق أسرتكم ، ولكنكم مطالبون إلى ذلك بحب الجميع بلا تفرقة وفاء بحق المنبع الذى منه نهلتم ، ولو لم يبادلوا حبكم بحب مثله لجهلهم بوجود أسرتكم !

وتمهل قليلا ثم قال :

ـ وعملنا عجيب ، ومحير إلا لمن يعقل . يحتاج إلى الصبر كما يحتاج إلى التهور ، إلى التضحية بالمال والروح والحرص على المال والروح ، إلى الاعتماد على النفس والتوكل على الله ، إلى الزهد فى كل شىء ، والشكر على كل طيب ، إلى حب الحياة وحب الموت !

وانتظر حتى نفذت كلماته إلى أعماقنا وراح يقول :

ـ وقد ألفتم الطاعة فيما مضى ، وما زلتم مطالبين بها هنا فيما أنقل إليكم من أوامر . ولكنكم مطالبون بالإبداع فيما عدا ذلك ، لا راحة ولا كسل ولا رجوع إلىّ إلا فيما أبلغت من أوامر صريحة ، وقد تمرستم بكافة

الأساليب ، ولكم أن تضيفوا إليها ما تقتنعون بصوابه ، ومصيركم رهن بفطنتكم ..

ولأول مرة أشعر بأن المهمة أشق مما تصورت . فإذا به يقول :

— وما العاقبة ؟ .. قد تكون الشرطة والعياذ بالله ، أو ميتة بطولية ، أو الترقى إلى مكتب الرياسة !

و لم أتمالك أن رفعت إصبعى فأذن لى بالكلام فقلت :

— تصورت أننى كلما اقتربت من الرياسة أن تجب الطاعة أكثر ويقل الاعتماد على النفس ..

فقال بثقة :

— تصور خاطئ فرئيسنا حر ، وما كانت ثورته إلا من أجل الحرية ..

فتماديت فى السؤال قائلا :

— لم لا يسمح لنا القائد لنستمد منه الشجاعة والقوة ؟

فأجاب :

— لا سبيل إلى ذلك إلا بالعمل . إلى ذلك فهو يتابع العمل بكل يقظة .

فتماديت أكثر قائلا :

— رغم ذلك فقد ترك « ب » لجلاديه يقتلونه !

فرنا إلى طويلا حتى عصرنى الندم ثم قال بصوت مهموس :

— لا أحد يملك أن يقطع برأى فى مصير زميلنا العزيز ..

وتبادلنا نظرات هاتفة جياشة ولكنه قال بعجلة وحزم :

— آن لنا أن نرفع الجلسة التى ما قصدت بها إلا التعارف ، وإلى اللقاء ..

وتعاقبت الاجتماعات ، وتتابعت الأوامر ، وكثرت الاجتهادات ، وأنجزنا أعمالا كبارا ، حتى لاح النصر فى الأفق مثل إشراقة الفجر .. وسقط كثيرون متلفعين بالبطولة فزادنا ذلك استبسالا وإصرارا ، وجعل رئيسنا « ج » يقول لنا كلما اجتمعنا :

ـــ حقا إنكم لرجال !

أو يقول :

ـــ سيرحل الشر عما قليل فقد يئس من الأرض .

وكان ذا حلم يشجع على المناقشة فقلت له ذات مرة :

ـــ أما آن لى أن ألقى الرئيس ؟

فقطب فى غير غضب وسألنى فى عتاب :

ـــ أيداخلك شك فى عدالة تقديرى ؟

فقلت بسرعة وصدق :

ـــ معاذ الله يا سيدى .

ـــ ألا يكفيك ما أنت فى شغل به ؟

فقلت بتوسل :

ـــ أصبحت يا سيدى وكأننى من مجانين العشق .

فضحك ضحكة خفيفة وقال :

ـــ من يدرى ؟ لعلك رأيته وأنت لا تدرى .

فرمقته بذهول غير مصدق فقال :

ـــ إنه ـــ على مدى علمى ـــ لا يعيش فى برج عاجى ، ولكنه يمارس حياته بين الناس ، وربما غشى الأماكن التى تجوبها للعمل أو الراحة ..

فقلت منكرا :

— لو لمحته للفت نظرى بقوة شخصيته .

فقال باسما :

— ما أكثر الأشياء الجديدة بجذب الأنظار لولا انغماسنا فى الأمور العابرة ..

رددت قوله على مسمع قلبى طويلا ، وكدت أشغل به عن كل شىء ، لولا نداء العمل الذى لا يكف عن الصراخ .

* * *

وتواصل النجاح واقترب الشروق حتى انفجر رأى لم يقنع بكافة الإنجازات التى تمت وتلهف على النصر النهائى . من أى أسرة انبثق ذلك الرأى ؟ أم هل انبثق فى الأسر الثلاث فى وقت واحد ؟ . بدأ بدعوة إلى عقد مؤتمر عام تحت الإشراف المباشر للرئيس الأعلى لإعادة النظر فى الخطة من أولها إلى آخرها . ولما لم تلق الدعوة القبول وقع ما يمكن اعتباره التمرد الأول فى الجماعة . فقد اجتمع ممثلون عن الأسر ، وتسابقوا فى عرض تصوراتهم الجديدة . واحتدم النقاش حتى انتهى بكل فريق إلى التحيز إلى أسرته وإيثار أسلوبها على جميع الأساليب والمناداة العامة بالانضواء تحت لوائها . وزلت القدم زلة أخرى فراح كل فريق يسخر من أساليب الفرق الأخرى . وارتفعت موجة الغضب إلى تبادل السباب والشتائم ، ثم انزلقوا إلى الاشتباك بالأيدى والأرجل ، وتمزقت الوحدة ، وانعزل الناس الطيبون وهم يذرفون الدمع ، متوقعين أن تنقض الشرطة فى الوقت المناسب فتقوض البناء من أساسه . و لم أصدق ما أرى وما أسمع ، وقطع الأسى قلبى ، وهرعت إلى رب أسرتى وقلت له :

— ما حدث لا يصدق .

فقال بحزن :

— هذه الأمور تحدث .

فتساءلت بحسرة :

— أبعد مشارفة النصر نقع فى اليأس ؟

فهتف بحدة :

— لا تلمس اليأس بلسانك !

— أما يزال لديك أمل ؟

فقال بنبرة قوية واضحة :

— انتظر ، كلا ، لا تنتظر . اندفع بلا تردد لصنع ما هو صادق وطيب ، ما هو إلا امتحان وككل امتحان فالأجوبة الصحيحة معروفة من قبل .

وتلقيت كلماته كما يتلقى الظمآن قطرة من الماء العذب .

مَمَرّ البُسْتان

بعد تردد طويل أجمعت على الذهاب .

نشدت الستر فى الليل ، وغصت فى عطفة السنبلة المستكنة تحت أمواج الظلام . عرفت طريقى بضوء الذاكرة الخفى ، هاتك الظلمة ومرشد القدم . وتسللت من الباب الحديدى الموارب ففغمتنى رائحة بخور أليفة . ومن حسن الحظ أننى لم أجد فى الدار أحدا من الزوار فطالعتنى وحدها متربعة على أريكتها الفارسية ، فى ثوب مزخرف بألوان شتى هادئة على هيئة أهلة وزهور ، مرسوم بحنايا جسم مدمج فصيح ، وجفنين شبه مسدلتين ، على أنامل تعبث بأوراق اللعب ، لا تمل فى وحدتها من استطلاع الغيب . لم ترفع عينيها نحوى كأنما عرفت القادم من وقع خطاه ، وكأنما تعمدت تجاهله . ولفرط شعورى بالإثم لم أجرؤ على مبادءتها بالتحية فجلست على أقرب كرسى إليها لائذا بالصمت . واصلت قراءة الورق ، ومضيت أفكر فى طريقة لفتح الحديث بعد أن تبخر من رأسى ما كنت أعددته تأثرا بجو الحجرة المفعم بالذكريات ، وبفتنة الإغراء الماثلة فى تراخ . وتظاهرت بالاهتمام كأنما كاشفها الورق بحقيقة غير عادية ، فهمست :

ــ فعل آخر يناطح عناده !

وندت عنها آهة مليحة وتمتمت تكمل الرؤيا :

ــ سيلهب ظهره سوط محملة أطرافه بالرصاص ! .

فقلت فى تسليم مجيبا على تعريضها بى :

— ما مضى قد مضى وعلى أن أنظر إلى الغد .

وكأنها بوغتت بوجودى فنظرت نحوى بدهشة وهتفت ساخرة :

— دستور يا أسيادى !

فوضعت مظروفا متوسطا بين يديها وقلت :

— جئت لأسدد ديونى وأنظر إلى الغد ..

فقالت تخاطب الورق :

— جاء ليسدد ديونه وينظر إلى الغد .

فقلت برجاء :

— يجمعنا العيش والملح ، وأنت سيدة العارفين !

فقالت بجدية لأول مرة :

— هذه أمور تقع كل يوم .

فقلت بحرارة :

— لم يعد الزمن يأذن إلا بمطلب واحد .

فأجابت بهدوء :

— الأمان .

فقلت متشجعا :

— الأمان ، وكلما شاورت فى الأمر صاحبا أشار إلى رجل واحد !

فقالت باسمة :

— إنه من يشار إليه فى هذه الأيام .

فقلت بأسى :

— ولم أجد من أستشفع به إليه لما عرف عنه من كراهية للوساطة

ولكنهم قالوا لى إن كلمتك أنت لا يمكن أن تخيب عند أى عظيم .

فقالت لى مباهاة :

ـــ هذا حق لو أنه كان من أصحابى .

فتنهدت و لم أدر ما أقول فقالت فى ملاطفة :

ـــ اعرف طريقك بنفسك .

فندت عنى ضحكة ساخرة وقلت :

ـــ ها أنت تهزلين ..

ـــ لو يجيء مرة واحدة لملكته كالآخرين ، ولكن أغلب رواد حانة القمر من أصحابى إلا هو .

فقلت فى حسرة :

ـــ آه لو تقع هذه المعجزة !

وتبادلنا النظر مليا . وفاضت عيناها بحيوية طارئة ، وضحكت ، ثم سألتنى :

ـــ ما رأيك ؟

فرمقتها بنظرة متسائلة فقالت :

ـــ أن تقوم أنت بالمهمة ..

ـــ أى مهمة ؟

ـــ المجيء به إلى هنا .

ـــ ولكن كيف ؟

فقالت بجدية :

ـــ إنه يغادر حانة القمر عند منتصف الليل ، ثم يخترق ممر البستان إلى الميدان حيث تنتظره سيارته ، فالممر هو أنسب مكان للقائه ..

ـ ولكنه أبعد ما يكون عن معرفتي !

فأغرقت في الضحك وقالت :

ـ تقترب منه بأدب أولاد الناس الطيبين وتقول هامسا : « أتريد كأسا جميلا ؟ ، بيت نظيف مكنون ! » .

فقطبت غاضبا من سخريتها وأشحت عنها بوجهي ، فسألتني :

ـ ألا يعجبك اقتراحي ؟

فقلت بحدة :

ـ اسخري ما شئت من ورطتي !

فقالت بجدية :

ـ إني جادة إن كان الأمان يهمك حقا .

فصحت متسخطا :

ـ كيف تتصورين أن أفعل بنفسي ذلك !

ـ ما هي إلا مغامرة عابرة يعقبها تحقيق المراد .

فتساءلت بازدراء :

ـ أليس لديك الكثيرون ممن يحترفون ذلك ؟

فقالت بإباء :

ـ لست في حاجة إلى أحد منهم .

ـ وهل أكون أنا أول من تختارين .. !

ـ ما هي إلا مغامرة عابرة ، ألا تفهم .. ؟

ـ كلا لا أفهم .

ـ بل عليك أن تفهم ، ولا بأس أن تختار موضعا في الممر بعيدا عن نور المصباح لتتشجع بالظلام .

— وكرامتي ؟

— إني لا أدعوك إلى الاحتراف ، ما هي إلا حيلة لمرة واحدة ، ولك أن ترفضها إن يكن لديك سبيل آخر ..

لدى عودتي لم أر ما أمامي من شدة انفعالي . لم يداخلني شك في قوة سيطرة المرأة على الرجال ولكني رفضت السقوط بتصميم غاضب شرس حتى خيل إلى أني لم أعد أكترث للأمان ، مرفأ الإنسان الأخير وهو على الحافة . وكأنما هان علىّ أن ألقى غول الغلاء وشظف العيش والمهانة والفترة الحرجة من العمر . واشتعلت في رأسي حرب بلا هوادة ولا توقف . ورحت أجوب المقاهي والحانات في ليل لا يريد أن يتزحزح . وقبيل منتصف الليل بقليل وجدتني واقفا في ممر البستان عند أقصى موقع عن نور المصباح . ماذا جاء بي ؟ . لعلي أردت أن ألقى نظرة من قرب على ذلك الرجل الذى لم أر إلا صورته في الصحف في بعض المناسبات . وكأنه كان يتحرك بانضباط فلكي ، فعند منتصف الليل تماما أهل من ناحية حانة القمر بقامته المديدة يمزق السكون بوقع خطاه الثقيلة . خفق قلبي وتهاويت من علياىّ . ولما حاذاني في مسيره تقدمت منه خطوة ، وسرعان ما تشتت عقلي في مخاوف شتى فكدت أرى الأصابع تشير إلى . عند ذلك امحت ذاكرتي وشل لساني . وانتبه هو إلىّ فضرب بشبا عصاه الأرض محتجا على اقترابي المفاجئ ، فتراجعت ومضى في سبيله .

ولم يدم ذلك طويلا ففي أثناء النهار لم أعف نفسي من اتهام . لماذا ذهبت إلى ممر البستان ؟ ، لم اقتربت من الرجل خطوة ؟ . وهل منعني حقا من الكلام إلا تشتت عقلي ووقوعه فريسة للمخاوف ؟ . الحقيقة أنني أخاف الناس . هم الأشباح التي تطاردني . ترى هل ينفعوني غدا لو

قاسيت شظف العيش والهوان ؟ ! . وانسقت بقوة إلى مطاردة الأشياء الغريبة عن ذاتى ، و لم أبال أن أتخذ موقفى فى ممر البستان قبيل منتصف الليل . وانتظرت فى تصميم وحيرة معا حتى أقبل الرجل نحوى فى طريقه إلى الميدان . واقتربت منه وأنا أهمس :

ـــ لدى كأس ونديم جميل وبيت آمن !

والتفت نحوى التفاتة سريعة . كان الظلام يفصل بيننا ولكنه أحاط ولا شك بهيئتى .

وسرعان ما أشاح عنى بوجهه وقال وهو يمضى بنبرة غاضبة :

ـــ عليك اللعنة .

احترقت حياء وخزيا فلم يغمض لى جفن . لقد بعت أعز ما أملك بلا ثمن . رضيت بالهوان ولكنه أعرض عنى بكل ازدراء . ومع الليل ذهبت إلى عطفة السنبلة ، وما أن رأتنى مقبلا على مجلسها حتى هتفت :

ـــ الخيبة مسطورة على وجهك !

فقلت وأنا أنحط فوق الكرسى يائسا :

ـــ لنبحث عن وسيلة أخرى .

وحكيت لها ما حصل ، فقهقهت ساخرة وقالت :

ـــ يا لك من بغل ، تتعرض لجنابه بهذا المظهر الوقور الأنيق ؟!

فسألتها حانقا :

ـــ وماذا كان بوسعى أن أفعل ؟

فاسترسلت فى الضحك ثم قالت :

ـــ لعله ظنك شخصا من خصومه يروم الإيقاع به ..

ـــ على أى حال فإن ذلك يؤكد وجوب البحث عن سبيل آخر .

فقالت بجدية :

ـــ لا سبيل لك غير ذلك فلتصحح التجربة .

فتفرست في وجهها الجميل غير مصدق فقالت :

ـــ البس الرداء المناسب لغايتك .

رجعت غاضبا عليها ، غاضبا على نفسي ، غاضبا على رغبتي الملحة في الأمان . ومضت أيام وأنا مستغرق في حوار مجنون مع ذاتي ، حتى وجدتني مرتديا جلبابا وطاقية وحذاء باليا ، أنتظر في ذات الموقع بممر البستان قبيل منتصف الليل . ومن شدة إحساسي بالهوان هان على فلم أعد أبالي به . ولما أزفت الساعة أقبل بقامته المديدة فتوثبت للعمل حتى حاذاني فدنوت منه وأنا أقول :

ـــ عندي ما يسر العين وتشتهيه النفس .

فلوح بعصاه حتى تقهقرت مذعورا وقال بامتعاض وسخرية :

ـــ ماذا قلت يا صاحب السمو !

ورجعت إلى داري وأنا ألملم نفسي المبعثرة وأغوص في أعماق خيبة جامعة . وتضاعف سخطي ولكن تضاعف تصميمي أيضا . وذهبت إلى السيدة وقصصت عليها قصتي متحديا . غير أنها هزت رأسها في أسف وقالت :

ـــ حقا إنك لبغل ، وفي حاجة إلى من يسندك لدى كل خطوة تخطوها .

فقلت ثائرا :

ـــ اقتربت منه لا فرق بيني وبين أحقر صعلوك .

فتساءلت ساخرة :

ـ وصوتك ؟

ـ صوتي ؟

ـ خاطبته يا حضرة بالصوت الذى اعتدت أن تخاطب به مرءوسيك !

فقلت بارتياب :

ـ لا أظن ..

فقاطعتني :

ـ لا تبدد الوقت ، إنى خبيرة بهذه الشئون !

وغبت أياما قضيتها فى التفكير والحزن والتدريب دون أدنى تفكير فى التراجع . وكيف أتراجع بعد أن بعت كل شيء بلا ثمن ؟ . ولما رجعت إلى موقعي بممر البستان كان الصبر قد أنهكني وكذلك القلق والأسى . ولما حانت اللحظة المرتقبة تقدمت بخفة وحنيت رأسي بذل وقلت بانكسار ولكن بمرارة لم أستطع التخلص منها :

ـ عندى شيء طيب ، فى مكان محترم وآمن ..

فمضى دون اكتراث بى ، ولما هممت بإسماعه صوتى من جديد نهرنى قائلا :

ـ الأجدر أن تدعو الناس إلى المآتم !

وسرعان ما فطنت إلى زلتي ، بل الحق أنني حنقت على نفسي لغلبة المرارة على صوتى. واعترفت بكل شيء للسيدة لأتقى سخريتها. وقلت بتسليم:

ـ لن أعود إلى المحاولة .

فتساءلت فى استنكار :

ـ أتيأس بعد أن لم يبق إلا قيراط من الصبر ؟

فنفخت قائلا :

ـــ لا نهاية للأخطاء ، وقد مللت ..

فقالت لى بنبرة مشجعة متجنبة أى إثارة من السخرية :

ـــ فكر قليلا يا صاحبى القديم ، كيف يمكن أن تستسلم لليأس وأنت على قيد خطوة من النجاح ؟ ، إنك متوهم أنك صبرت بما فيه الكفاية ولكن ما قيمة الصبر بغير الرضا ؟ ، وقد أبديت إصرارا لا بأس به إذ من كان يتصور أنك تقدم على ما أقدمت عليه ؟ ، ولا تنس فى النهاية أنك تسعى إلى اصطياد رجل ولا كل الرجال ..

فقلت برية :

ـــ يخيل إلى أنه ليس من أهل ذلك ؟

فقالت ضاحكة :

ـــ بل هو ذلك نفسه !

ثم مواصلة بجدية :

ـــ ولو لا ثقتى من ذلك ما عرضتك للتجربة ، وأنا لست ممن يخونون العيش والملح ..

وتركتها بروح منتعشة ، وتفتح الورد فى صدرى من جديد ، فصبرت أياما ولا هم لى فى الحياة إلا ممر البستان ، حتى وجدتنى فى الموقع أنتظر . ورأيته مقبلا بقامته المديدة فالتزمت موقفى حتى مر .. ثم تبعته بخشوع وأنا أهمس :

ـــ لا تدع فرصة العمر تفوتك !

فلم يلتفت نحوى ومضى . فتبعته بعناد وأنا أهمس :

ـــ بيت آمن ويليق بجنابك ..

وإذا به يسألنى فجأة :

ـــ أين ؟

فقلت بسرور لم أجربه من قبل فى حياتى كلها :

ـــ عطفة السنبلة ، البيت الثالث إلى يمين الداخل .

وكنا اقتربنا من الميدان فنادى سائق سيارته ، ولما جاء مهرولا ، صاح به آمرا :

ـــ اقبض على هذا الرجل وناد الشرطى !

فوضعت راحتى على فم السائق باستماتة وقلت وأنا أنتفض كالمصعوق :

ـــ كلا .. انتظر .. لست متهم .. أنا رجل محترم ..

فأمره بإشارة أن يدعني وشأنى وتساءل متهكما :

ـــ محترم ؟

فقلت وما زالت أنتفض كالمصعوق :

ـــ إليك بطاقتى ..

وتناولها وراح ينظر فيها ثم تساءل :

ـــ كأنك محتال .

فاندفعت أقص عليه قصتى بصراحة كاملة مذ اجتاحنى نشدان الأمان فأزاح بقية مطالب الحياة عن كاهلى . وصمت مليا وهو يتفحصنى على ضوء الشعاع الهابط من مصباح فى الميدان ، ثم قال ببرود :

ـــ إياك أن تريني وجهك مرة أخرى !

* * *

وعقب أيام لم أحصها جررت قدمى إلى عطفة السنبلة وكأنما قد

طعنت فى العمر أعواما مديدة . ولما شارفت مدخل الدار برزت من تلافيف الظلام عجوز واعترضت سبيلى قائلة بصوتها الهرم :

ـــ السيدة معتكفة .

فعرفت صاحبة الصوت وتساءلت :

ـــ ماذا وراءك يا أم بركة ؟

فعرفت بدورها صوتى وقالت :

ـــ السيدة تطالبك بتجنب الزيادة حتى ترسل فى طلبك .

فخفق قلبى وتساءلت :

ـــ هل تنتظر السيدة زائرا مهما ؟

فقالت أم بركة :

ـــ لا علم لى بشىء ، اذهب مصحوبا بالسلامة .

ولم أجد مفرا من الرجوع . وتكشفت لى سحب الغموض عن أمل . ما كانت تتخذ هذا القرار لو لم تكن تنتظر زيارة هامة . وما معنى قولها « حتى ترسل فى طلبك » لو لم يكن للأمر علاقة بمشكلتى ؟ . أسفر الظلام عن أمل . وخفق قلبى بالرؤى . ولاح لى الأمان بوجهه المشرق وراء غبش الظلام . لم يبق إلا التحلى بالصبر . وها هو التلهف يحيل الصبر عذابا حقيقيا . ومرت الأيام . وعذاب الصبر يتفجر ويزداد افتراسا . همى الوحيد هو الانتظار . وتساؤلى المتردد هو :

ـــ متى يجىء الرسول ؟ ! .

البُسْتَانِيّ

كان وما زال حلمى الوردى أن أستقر بعد المعاش فى بيت ذى حديقة صغيرة . وأن أكرس بقية العمر لفلاحة الأزهار والبساتين . ومن أجل تحقيق هذا الحلم رسمت لنفسى خطة طويلة الأمد ، أن أبذل فى عملى أقصى ما أملك من جهد كى أرقى فى سلمه إلى درجة تضمن لى معاشا محترما ، وأن أسيطر على سلوكى ونظام معيشتى كى أدخر من مرتبى ما ييسر لى بناء البيت المنشود بعد انضمامى إلى إحدى الجمعيات التعاونية ، وأن أدرس دراسة متأنية فلاحة الأزهار والبساتين . ولو أن الخطة نفذت فى كتمان وحكمة ما تعرضت لقيل أو قال ، ولكننى كنت وما زلت من الآدميين الذين لا يخفون أسرار أحلامهم ، فعرف جميع الصحاب حلمى الوردى وما أعد له ، وعلم به آخرون ، حتى عرفت على مر الأيام وعلى سبيل المزاح ، بالبستانى . وجرت المقادير فى مجاريها غير عابثة بحلمى الأثير ، فتعرض العالم لويلات من الحروب والأزمات ، فمضت الأسعار فى ارتفاع وقيم النقود فى الهبوط ، ولم تتحقق وفرة بلا حساب إلا فيما أنتجت من بنين وبنات . والأدهى من ذلك كله أنى لم أحظ برئيس ينتفع بمواهبى فيرشحنى لدى حلول الفرصة للترقية . وكنت أقول بصوت بسات الشكوى سمة غالبة على نبرته :

— يا سادة — ألا يلقى عملى المتواصل عندكم شيئا من الجزاء ؟

ولما لا أجد أذنا صاغية أقول :

— وإذا عز العدل أفلا يوجد شيء من الرحمة ؟

فيقول لى رئيسى :

— انتبه لواقعك يا بستانى، أين الإنتاج الذى تحدث عنه؟، ما أنت إلا مستخدم عادى دون المستوى المطلوب ..

فأقول مستميتا فى الدفاع :

— ولكننى مجتهد ، ولكل مجتهد نصيب .

فيضحك قائلا :

— لم يعد العصر يحفل بالأمثال القديمة ، اليوم نحن نربط الحوافز بالإنتاج ..

وجعلت أغوص فى الحيرة والظلام . أقلعت عن ذكر حلمى الوردى ولكنه ظل فرجتى وحلم يقظتى . وكلما لمحت لونا أخضر تراءت لخيالى الحديقة : فتنقلت بين ورودها وأزهارها . ملقيا خبرتى فى خدمتها . متلقيا منها مسرات الأريج والألوان . غير أن زوجتى لم يكن يشغلها إلا مستحقات البقال والجزار والدروس الخصوصية ، ولا تكف عن تذكيرى . وعانيت أمر تحمل الأعباء ومرارة الإخفاق حتى رق لى رفقاء الطريق من زملائى الخائبين فهمس فى أذنى أحدهم :

— كيف تحتمل الحياة بلا ابتسامة ؟

فسألته :

— خبرنى كيف يروق لك الابتسام ؟

فهمس بإغراء :

— عليك بخمارة « خذ واشكر » .

كان فى غاية الوقار والتعاسة فعجبت لشأنه وقلت بفتور :

ـــ كيف تدعوننى إلى مزيد من الإنفاق ؟!

فضحك قائلا :

ـــ معاذ الله ، هل يعز عليك ادخار قرش واحد ولو بالرجوع مشيا على الأقدام مرة ؟

تكلم بثقة ويقين فقلت أجرب ، وهكذا اهتديت إلى خمارة « خذ واشكر » فى عطفتها الأثرية « زاوية العابدين » بالباب الأخضر . وهى أشبه بمغارة فى جوف جبل ، تعيش فى ليل دائم يغوص فى عمق المبنى الضيق المهلهل التى تقع فى أسفله ، يفضى إليها باب مقوس الهامة ولا نافذة فيها ، ذات شكل بيضاوى ، وفى نهاية عمقها يقوم برميل ضخم ذو صنبور سفلى يجلس إلى جانبه على أريكة عجوز يدعى عبد البر ، وتصطف على جناحيها أخونة خشبية ومقاعد من القش المجدول . ويقدم الشراب فى كوب صغير مضلع لا يملأ عين الظامئ ، وهو شراب مجهول الهوية لا يعرف كنهه حتى الراسخون فى السكر والعربدة . وسرعان ما تبين لى أن قلة من رواد الخمارة من يستطيعون تجرع الكوب حتى ثمالته ، وكثرة تقنع بنصفه لشدة مفعوله وبقاء أثره حتى الفجر . وما كدت أرشف منه رشفات حتى أكرمنى غاية الكرم فاغتال بنفثاته الزاحفة وحوش الهموم التى تطاردنى ليل نهار ، وأحل محلها الأنس والرضا والبشاشة . ووجدتنى وسط الحديقة أغرس جذورا جديدة وأقطف أزهارا يانعة . ومال صاحبى نحوى قائلا :

ـــ هلم نناقش همومنا الملحة ..

فقلت محتجا :

ـــ أريد الحديث عن الورود وأنواعها ..

فقال ضاحكا :

ـــ ها قد وصلت إلى الحديقة .

فسألته :

ـــ ألا تسمع تغريد البلابل ؟

واندفعنا نغني معا :

الزهر فى الروض ابتسم

وكانت تقاليد الخمارة ترحب بالغناء . ومن كل ركن ترامت أغنية مشرقة ، وجلس عبد البر ، بلا حراك وهو يبتسم .

* * *

وحرصت على كتمان السر ما وسعنى ذلك غير أن الخمر ذات رائحة ناطقة من المتعذر إخفاؤها إلى الأبد ، من أجل ذلك افتضح أمرى ، وتلقيت فيضا من اللوم والتعنيف وكانت زوجتى أول البادئين فقالت لى :

ـــ أكان ينقصنا هذا الداء ؟ ..

فقلت لها بصدق :

ـــ إنى أؤدى ثمنه مشيا على الأقدام و لم يمس الميزانية بسوء .

فتساءلت :

ـــ والأولاد الذين يكبرون يوما بعد يوم ؟

فقلت بضيق :

ـــ ربنا يستر .

ولكن السر انتشر فى أماكن كثيرة ، تعدى من لسان إلى لسان ، فدعانى بالكاساتى من سبق أن أطلقوا على البستانى . وتجلى أثر ذلك فى موسم الترقيات ، فقال لى رئيسى متهكما :

ـــ كنت ذا هم واحد فأصبحت ذا همين ..

فقلت محتدا :

— يا أهل العدل والإنصاف ، احكموا على عملى ، ولا شأن لكم بسلوكى خارج الديوان .

فقال الرجل بامتعاض :

— ولكن الثقة لا تفرق بين هذا وذاك

فقلت محتدا أكثر :

— المسألة أننى بلا شفيع !

* * *

واستجاب القدر لشكاتى الخفية فجاد على بالشفيع المنشود . كنت فى خمارة « خذ واشكر » على أحسن حال . وحكيت لصاحبى حالى بينى وبين رئيسى وأنا مغمض العينين فقال لى :

— سيكون لك الشفيع الذى تريد .

فالتفت إليه متسائلا ولكنه كان قد اختفى تماما . وحل محله آخر لم أره من قبل . كان يرتدى عباءة من كتان أبيض ذات ذيل من جلد النمر وعلى رأسه عمامة خضراء . عجبت بهيئة وجهه التى تذكر بوجه الأسد رغم ميل جسده إلى القصر . وسألته بدهشة :

— من أنت ؟ .. وأين جليسى ؟

فأجاب بهدوء مفعم بالثقة :

— إنى شفيعك .

ولم يداخلنى شك فى صدقه أو قدرته ، وتلقيت ذلك فيما يشبه الإلهام الذى لا يناقش . من أجل ذلك قمت وأنا أقول :

ـــ خير البر عاجله .

واصطحبته إلى بيت رئيسي فى الزيتون ، فى تلك الساعة المتأخرة من الليل . وطرقت الباب بشجاعة لا أدرى من أين مأتاها ففتح الباب بنفسه ، ونظر إلى بذهول واستياء لم يحاول إخفاءه . وجلس قبالتنا فى حجرة الاستقبال متجهم الوجه ، فقلت :

ـــ معذرة عن زيارة فى وقت غير مناسب .

فقال دون مجاملة :

ـــ هذه الساعة من الليل !

فأومأت إلى رفيقي وقلت :

ـــ أقدم لسيادتك شفيعي ..

فلم يحول بصره عني ، وقرأت فى ناظريه توجسا وقلقا ، فالتفت إلى صاحبي وقلت برجاء :

ـــ تكلم يا سيدى ..

فقال الشفيع بهدوئه المكين :

ـــ إنه يستحق الترقية لدرجة جديدة فى طريقه الطويل !

فنظرت إلى رئيسي وهو غائص فى روبه البنى القاتم فإذا به يتمادى فى القلق والخوف . وأشفقت من إحراجه فنهضت قائما وأنا أقول :

ـــ موعدنا الغد يا سيادة الرئيس ..

* * *

وجاءت ثمرة الشفاعة بعكس ما قدرت فقد تقرر إحالتى على المعاش قبل بلوغى السن القانونية بخمسة أعوام . و لم تجد الشكاوى المتلاحقة التى

رفعتها إلى الجهات المختصة . وساء مركزى فى أسرتى وفى الأماكن الأخرى . وكاد بناء أسرتى أن ينهار لولا سعى أهل الخير لإلحاقى بأعمال إضافية ، فعملت مصححا بمطبعة السعادة ، وكاتبا على الآلة الكاتبة بالقطعة فى مكتب توكيل . وبات حلم امتلاك البيت والحديقة خرافة ولكنى لم أكف عن ممارسة أحلام اليقظة فى خمارة « خذ واشكر » .

وجعلت أقول لصاحبى :

ــ كأنما جاء الشفيع ليخرب بيتى ..

فقال الرجل :

ــ ولكن حالتك اليوم أحسن مما كانت وأنت فى الخدمة ..

فقلت متشكيا :

ــ ولكنى أعمل كالثور فى الساقية .

فقال باسما :

ــ الصبر مفتاح الفرج .

فقلت بحنق :

ــ وددت لو يجيء مرة أخرى لأسأله .

فقال ساخرا :

ــ خلها على الله بلا مناقشة ولا وجع دماغ .

* * *

وبلغت دراستى لفلاحة الأزهار والبساتين غاية يعتد بها ، فسنحت لى فكرة مثيرة ، وهى أن أستثمر معلوماتى متطوعا بلا أجر . ألا يجعل ذلك من الحلم حقيقة ؟ ، ومن المستحيل ممكنا ؟ . إن الحدائق الخاصة فى حينا

متوفرة بكثرة تفوق الحصر ، وإذا عرضت على أصحابها خدماتى فلن يرفضوها ولو على سبيل مجاملة الجار . بذلك لا يهدر عناقى الطويل المتواصل ولا يتلاشى سرورى فى الحياة . وها أنا أمضى البقية الباقية من حياتى فى الخضرة بين الأزهار دون حاجة إلى تدبير أو شراء أو بناء ، وكأننى أملك بدل الحديقة الواحدة عشرا .

هكذا حققت حلمى متجاوزا كافة عقبات الطريق ..

النِّسيانُ

اشتعل خيالى فانفجرت موجاته فى جميع الأرجاء ولكنه لم يلم بالمدينة اللانهائية . إنها تربض فى أى مجال من مجالات البصر ، كائنا عملاقا بلا حدود ولا تناسق ، ملوحة بآلاف الأذرع والسواعد والأصابع ، تستوى فوقها آلاف مؤلفة من الأبنية الشاهقة المجللة بطابع العصر المتعجرف التياه ، وأخرى متهرئة حال لونها فى قبضة الزمن الجارف وثالثة آيلة للسقوط يلتصق بها سكانها فى استسلام وإصرار ، وفى فجاجها يتلاطم الناس فى صخب ويتلاقون فى غفلة وضوضاء ، وتتابع الباصات والسيارات والكارو والجمال وعربات اليد عازفة أصواتها المتضاربة ، والحوادث كثيرة والأفراح صارخة والجنازات زاعقة والمشاجرات دامية والعناق حار وحناجر تنادى على سلع من الشرق والغرب والجنوب والشمال ، ويختلط الأنين الشاكى بشهقة الحمد والرضا .

مأوى المهاجرين من الكفر مثل طوق نجاة فى البحر العاصف . يستقبلنى شيخ القبيلة المهاجرة قائلا :

— ابن جديد ، أهلا بك فى أسرتك .

فألثم يده وأقول :

— شكرا لك يا عمى .

ووجدت مقعدى فى المعهد ينتظر أيضا . وكنت عند حسن الظن فتوجت الرحلة بالنجاح . وألحقت بالعمل فى مصلحة المساحة وأنا أقول

« من جد وجد » . ومن العمل تسللت إلى المقاهي والأصحاب ولكن بحذر المتقشفين . وراودتني أحلام القلوب الصائمة . وفي مأوانا ورود متفتحة . ودارت العجلة بالإصباح والأصائل والأماسي . وحدث شيء مألوف ، حلم عابر يذكر أو يغفل . ولكن يبدو أنه ومض في عيني ومضة لم تغب عن بصر شيخنا الثاقب . فقال لي وهو متربع على أريكته يناجي حبات مسبحته :

ـــ في نفسك شيء يدور .

فقلت باسما :

ـــ جاءني في المنام شخص وحذرني من النسيان ..

فتفكر مليا ثم قال باسما أيضا :

ـــ إنه يذكرك بالشباب !

وفطنت إلى ما يلمح إليه . وفي مهجرنا لا تحول الصعاب بين المرء وبين ما يشتهي قلبه. قبيلة متآخية متراحمة. والحجرة تتسع لزوجين بمثل ما تتسع لفرد . والعروس جاهزة منتظرة وثمة تسهيلات جمة ومساعدات ميسرة . ويقول الشيخ :

ـــ لنلتزم بالسنة الشريفة ، وعلى بركة الله .

وتطلى الحجرة ، وتؤثث بالجديد المناسب ، وتستقبل عروسين في تلك المدينة الهائلة التي لا تبالي بأحد . والحياة في مهجرنا تقوم على التضامن ، وتتفتق عن حيل كثيرة للتغلب على عسرة الأيام . وأقول لنفسي وأنا في غاية السعادة :

ـــ طريقنا عبدته أقدام أسلاف كرام .

وانهمكت في الحب والزواج والأبوة والعمل . وجعلت أقول

للشيخ :

ـــ الفضل لله ولك .

فيقول بامتنان :

ـــ بيتنا مثل سفينة نوح فى هذا الطوفان الذى يحدق بنا .

فقلت له :

ـــ عمى ، الناسّ تحسدنا وتغبطنا ..

ـــ ويزداد ذلك كلما أمعنا فى الزمن .

وانتبهت ذات ليلة على الحلم يعود من جديد . ويحذرنى ذلك الرجل من النسيان . رأيته كما رأيته فى المرة الأولى أو هكذا خيل إلى . الرجل هو الرجل والكلام هو الكلام . واستمع الشيخ إلى باهتمام ثم قال :

ـــ عودتنا أن تحلم بهواجسك .

فقلت :

ـــ قلبى مطمئن وخال من الهواجس .

ـــ حقا ؟ ! ، ألا تفكر فى مستقبل أسرتك ؟

فقلت كالمحتج :

ـــ سعيد فى هذا الزمان من يستعد ليومه .

ـــ وماذا تفعل غدا إذا ألحت عليك المطالب ؟

فلذت بالصمت فى كآبة ، فقال :

ـــ افعل كما يفعل كثيرون ، استعن بعمل إضافى ..

ويسر لى بنفوذه التدريب فى مركز سباكة . وبرعت فى ذلك براعة محمودة . ورحت أستثمر خبرتى الجديدة مساء بعد فراغى من عملى الرسمى . وتوفرت أرباحى فتراكمت مدخراتى . وتابع الشيخ نجاحى

بارتياح وهو يقول :

— هذا خير من الانحراف ، وزماننا يطالبنا بأن نكون كالقطط بسبعة أرواح .

ودب فى أوصالى نشاط باهر ، وانتشيت بحب الحياة وتغافلت عن فوضاها الضاربة فى كل موضع . وأغرانى ذلك باكتراء شقة غرمت فيها خلوا لا يستهان به . وودعنى عمى فى شىء من الفتور وهو يقول :

— هكذا تجرى الأمور .

وآمنت بأنه لا طمأنينة لحى بغير العمل والمال ، وبأن أسعد ما نناله فى دنيانا مستقبل مأمون . وحافظت على اعتدالى بقدر الإمكان فلم يجد جديد فى حياتى سوى التدخين واللحوم الدسمة والحلوى الشرقية . وتخرج أبنائى وبناتى فى مدارس اللغات . وأقبل مع الأيام كل شىء حسن . وفى غمرة حياتى العذبة انتبهت ذات ليلة على الحلم يعود للمرة الثالثة ، ويحذرنى الرجل من النسيان كعادته . رأيته كما رأيته فى المرتين السابقتين أو هكذا خيل إلى . الرجل هو الرجل والكلام هو الكلام . وعجبت و لم أفلح فى الاستخفاف به . و لم يكن الشيخ قريبا لأحاوره . وكنت قد انقطعت عنه فترة غير قصيرة لانهماكى فى العمل فكرهت أن أزوره زيارة غير بريئة لمنفعة . وساورنى قلق تسلل لسلوكى فعانت منه زوجتى ، وقالت لى :

— خير من ربنا وشر من أنفسنا !

فقلت باستهانة :

— ما هو إلا حلم على أى حال ..

فقلت مصدقة :

— ولا أراك تنسى شيئا ..

ولكنى لم أستطع التملص من قبضة الحلم العجيب . ظل يطاردنى ويشغل بالى . وتحت تأثيره اندفعت من الطوار إلى الطريق لأعبره دون انتباه لحركة المرور . فجأة وبلا انتباه . وانقضت على سيارة من قريب فلم تستطع أن تتحاماني أو تفرمل قبل أن تصدمني وتطيح بى كالكرة . فقدت الوعى تماما حتى استيقظت فى المستشفى على حال لا يرجى معها أمل .

* * *

ومن منطلق العبرة والأسى يحدثنا الشيخ فيقول :

ـــ نقل إلى المستشفى تظله سحابة الموت السوداء ، فأجريت له جراحة خطيرة ، وثبت من التحقيق وشهادة الشهود بأنه اندفع إلى الطريق فجأة وكأنما يقصد الانتحار ، وبأن لا مؤاخذة ألبتة على السائق ، وجلست جنب فراشه وقد علمت بأنه لا أمل فى نجاته ، وزارنا صاحب السيارة مواسيا ومتطوعا لمد يد المساعدة ، فمكث قليلا ثم ذهب . وتحرك جفنا ابن أخى وتجلت ومضة ضعيفة فى عينيه فأدنيت أذنى من فيه . وسمعته يهمس :

ـــ إنه الرجل ، هو هو صاحب الحلم ...

وكانت آخر كلمات ندت عن شفتيه ...

صَاحِبَةُ العِصْمَة

يوم جاءت كان يوم . بياض نهاره توارى فى عتمة غاشية تحت السحب المتراكمة ، ونسائمه جالت مثقلة بالبرودة تسفع الوجوه وترعد الأطراف ، ونذر المطر تهيم فى الفضاء . وتوجس الناس فحملوا السلع إلى أعماق الحوانيت ولاذت عربات اليد بالأفنية . لم يبق فى الحارة إلا الصغار يتحدون عبوس الجو بمرحهم المستهتر . جاءت فى حنطور يتأود فوق أديم مبلط ، يشده حصان مهزول ، ويسوقه حوذى عجوز نعسان ، مسبوقة فى اليوم السابق بأثاث فخيم بهر الأعين المتفحصة . وقف الحنطور أمام آخر بيت من ناحية القبو ، فمرقت منه إلى الداخل امرأة رشيقة محجبة لم يكشف نقابها المحكم عن ملمح من ملامحها ، وتبعتها عجوز سافرة مقوسة الظهر من الهرم . أذاعت صاحبة البيت بأن الدور الثانى والأخير اكترته أسرة ذات شأن ووزن ولكن لم يتصور أحد أن تتكون من امرأة وحيدة وخادم عجوز . ولما دارت العربة بصعوبة لضيق المكان لترجع من حيث أتت وثب رجل نحو الحوذى وسأله :

ـــ من أين جئت بحمولتك ؟

فأجاب العجوز وهو يهز اللجام مستحثا حصانه على السير :

ـــ من زين العابدين .

ولم يشبع الجواب نهم أحد وأخذ الرذاذ يرش الأرض .

وقال صوت :

— الخير على قدوم الواردين .

فتعجب آخر :

— أى خير فى هذا الجو العاصف !

ورغم انهماك الحلق فى غيابات الحياة اليومية وانغماسهم فى الحساب نفثوا مع أبخرة أفواههم الظنون وجاشت صدورهم بالأخيلة المحرمة ، واستفحل الخطب بتسلل أنباء عن ترملها المبكر ووحدتها المثيرة وترفعها المتحدى وما خلفته وراءها من احتدام الأهواء الجامحة . تقول مالكة البيت بفخار :

— أرمل الشيخ النقيب صاحب الوقف المعروف باسمه وشرطه الأول أن يبقى استحقاقها ساريا ما بقيت أرمل فإذا تزوجت سقط حقها فى الريع ..

ويطالبها صاحب الوكالة بوصفها فتقول :

— لمحة عابرة ولكنها ثمرة ناضجة قبيل منتصف العمر ، ليس كمثل جمالها شيء ..

. ويتجهم وجه المرأة الغامق مثل قشرة الدوم وتقول محتجة :

— لا ترحب بلقاء أحد ، ولا أنا صاحبة البيت ، أصبح على وجه خادمتها الكركوبة أم طاهر ، أما كوثر هانم ..

ويقاطعها أكثر من رجل :

— اسمها كوثر ؟

— كوثر البدرى كما هو مرقوم فى عقد الإيجار ..

وأم طاهر تجول فى الحارة مع تعاقب الأيام . تطوف بالجزار والبقال والفاكهى والعطار والبنان وتعرض عن المتطفلين . وسيدتها قابعة فى

أعماق ذاتها ، لا تغادر البيت ، لا تلوح فى نافذة ، ولكنها غزت الأخيلة بسحرها الخبيء ، وأشعلت الوجوه والأطراف بوقع نظرتها المتسللة الخفية من وراء النوافذ المغلقة ، تَرى ولا تُرى ، تقيم وتزن وتحكم من جانب واحد ، وهم تحت رحمه مجهولها لا علم لهم بما يروق أو يسخط ، بما يفتح الأبواب أو يغلقها ، بما يقرب أو يبعد . وهى وفدت إلى الحارة فى وقت استقر فيه زحل فى برج الحظ المائل ، فأرسل نحسه ليعمر القاصى والدانى . ثقلت الأرواح ففقدت خفه مرحها ، وصمت الآذان عن سماع الغناء ، وجفت القلوب فتلاشت خفقة الحب والحنان ، ومضت الشمس تشرق وتغرب والقمر يسطع ويأفل فلا يظفر بمن يندهش أو يفرح أو يتذكر ، ولكن احتدم البيع والشراء وتناطح الربح والخسران ، وتوالى الملء والتفريغ ، وكثر الغش والحلف بالطلاق ، والحج لعقد الصفقات ، والزواج لتأمين الدعارة ، واندلاع الخصومات لأتفه الأسباب ، حتى حار من أمره ينسون ، الشاب مجهول الأب نحيل الجسم ذو قلب الطفل ووجه العذراء ، ما بال أحد لا يداعبه أو يعطف عليه كالأيام الماضية ؟ ، ما زال سقاء الحارة يطوف على البيوت بالِقَرب ولا يجد عند المساء من يلهو معه أو يطرب لصوته إذا غنى . وفدت إلى الحارة وهى على تلك الحال فما فعل مجيئها إلا أن أرث الطمع وهيج الجشع وقدح زناد الهدم والتخريب . وقال مدَّعو الحكمة إن امرأة هذا حالها لا تفرط فى الوقف من أجل الشرع ولكنها فى النهاية تمهد فراشها للزنا لصاحب القسمة والنصيب فيفوز بالحب والمال معا . وفى الليالى الساهرة التى يحتفلون فيها بالصفقات الرابحة تنهزم جحافل الليل أمام أضواء الكلوبات ، وتغص الأرض بالجماهير ، وتزدحم الأبواب والنوافذ بالنساء . وترتسم هامتها وراء خصاص النافذة

فتنبض العروق بالحماس ، ويشمل بالنشوة السكارى والمفيقون ، فيتبارون فى الرقص والمصارعة والمزاح يقدمونها قرابين تحت النافذة ، استثارة للرغبات الكامنة وتمهيدا للاقتحام . ويراقب شيخ الحارة ما يجرى بعين تطفح بالكآبة فيحدس قلبه المتاعب المقبلة فى طيات السحب ، ولم يجد من يحاوره إلا ينسون المستقر فى رحاب الطيبة والأسى فيقول له :

ـــ لا يتذكرون قتلى أسلافهم يا ينسون .

فيسأله الفتى الذى سعد بإقباله :

ـــ كيف قتلوا يا شيخنا ؟

فيقول ماضغا مرارة الذكرى :

ـــ لأتفه الأسباب يا ينسون ..

ومضت أيام ذاك الشتاء العاتى دون أن تصيب شهوة مرماها فانفجر غضب الكبرياء فى القلوب المحتدمة بالضجر ، وتمخضت ليالى الغرز عن مكيدة ، فاختفت أم طاهر هاجرة خدمة السيدة الوحيدة ، وتعهدت مالكة البيت بالامتناع عن تقديم أى مساعدة للجميلة المتوارية . دبروا ذلك ليجبروا المرأة على الظهور والمشى فى السوق ثم يكون بعد ذلك ما يكون . ولم تكن المكيدة مما يتفق مع تقاليد الحارة وشهامتها الموروثة ، ولكنها لم تنب عن ذوقها الذى اكتسبته أخيرا فى دوامة الأعاصير الجارية ، ووعدت الجميع بإشباع نهمهم ودغدغة غرائزهم وتحقيق أخيلتهم المحمومة . ولم تشغلهم أعمالهم عن التربص بالمسكن المغلق . عما قليل ستهل عليهم بقامتها الممشوقة ، كاشفة عن ذاتها ، ويتهادى إلى الآذان صوتها الناعم . وباقتراب اللحظة المترقبة اضطرمت المنافسة فى الأعماق ، وتوترت العلاقات واندلع الاستفزاز فى المحاجر فأنذر بأوخم العواقب .

منى كل نفسه بها ورأى ذاته فى مرآة الوجود الأجدر والأحق بملكيتها شرعا أو سفاحا . وتوثب شيخ الحارة للعمل ولكن الأحداث لم تمهله ، فنشبت معارك وحشية ، كلما سد ثغرة انفتقت ثغرة ، وتعرت الأنفس بلا حياء . وجمع الشيخ عزيمته ومضى إلى البيت ، وطرق باب الست . ومن وراء شراعة الباب المواربة قال :

ـــ أنا شيخ الحارة .

فجاءه صوت غاية فى العذوبة وهو يقول :

ـــ انتظرتك من أول يوم !

ـــ عظيم ، ماذا ترين حلا لهذه الوحلة ؟

فقالت بعتاب :

ـــ ظننتك قادما بالحل !

ـــ الوحش انطلق بلا رادع ، ولن يرجعه إلى قفصه إلا أن تذهبى بسلام . .

فقالت بأسى :

ـــ جئت هربا من هذا الوحش !

فتفكر قليلا ثم قال :

ـــ اختارى أحدهم .

فقالت بازدراء :

ـــ لا خيار بين هؤلاء الحقراء .

ـــ منهم من يعد من أغنى الأغنياء .

ـــ ليس المال ما ينقصنى .

ـــ ستخرجين اليوم أو غدا إلى حارتهم .

ـــ لم أعتد الجولان فى الطرقات .

ـــ لن يسعى إليك الطعام على قدمين ؟

فصمتت مليا ثم قالت :

ـــ يا شيخ الحارة ، أرسل إلى الفتى ينسون !

فهتف الرجل ذاهلا :

ـــ ينسون !؟

فقالت بهدوء :

ـــ نعم . إنه يصلح للخدمة .

ـــ سيغرونه بهجرك كما فعلوا مع أم طاهر وصاحبة البيت ؟

ـــ قلبى يحدثنى بخلاف ذلك .

ـــ أخاف عليه سوء العاقبة .

ـــ أرسله ، ودع الأمر لى ..

وانتبه الرجال فإذا ينسون يعمل فى خدمة السيدة الجميلة . يذهب ويجىء فى طمأنينة الغافل عن النذر المحدقة به . وتغير منظره . خطر فى جلباب صوفى وطاقية بيضاء ومركوب أحمر . وفى حمام السلطان تجلى لونه الحقيقى لأول مرة . وثبت لكل ذى عين أن له شبابا ورونقا . وتفاقمت الشائعات المغرضة عن العلاقة بينه وبين كوثر هانم . ولم تنهزم المرأة ولكنها تحدت الجميع بإرادة لم تجر لأحد فى بال . استدعت المأذون فى رابعة النهار ، وأتت ـــ من بين معارف أسرتها ـــ بشاهدين خطيرين ، حمل حضورهما معها فصل الخطاب ، هما شيخ الأزهر ومدير الأمن العام ، وقالت المرأة لشيخ الحارة :

ـــ ضحيت بنصيبى فى وقف النقيب قانعة بالحب والأمان ومدخر من

المال يكفى لبدء حياة جديدة .

* * *

وحتى اليوم أتذكر هذه الحكاية كأسطورة من أساطير الصبا ، ولكنى أتذكر أيضا أن أبى أقسم لى مرة أنها حكاية حقيقية ، وأنه عاصرها على عهد شبابه المولى .

في أثر السيدة الجميلة

ذات صباح مبكر دافىء صادفتها عند منعطف البرج وليس فى الطريق غيرنا سوى الكناس . كنت قادما نحو المنعطف من ناحية وهى قادمة من الناحية المقابلة وبيننا أشعة الشمس المشرقة تحبو فوق الأرض الخضراء .

ألقيت نظرة عابرة فشدت بقوة باهرة لتستقر فوق صفحة وجه ذات مواصفات خاصة لا جدوى من وصفها . الجميلات كثيرات ولكن إحداهن تختص بميزة سرية يتسلل منها إلى قلب ما نداء مبهم لا يقاوم . قوته الحقيقية فى الأمر الصادر منه ، وقوته الحقيقية أيضا فى الاستجابة الحارة إليه التى لاتفسير لها . من أجل ذلك وقعت أسيرا بلا معركة أو من خلال معركة لم أشعر بها قط . انشرح صدرى بقوة عجيبة ، واستسلم قلبى بلا قيد أو شرط ، كأنها غاية الدنيا وثمرتها النهائية ، هى ما أريد ، وما تعلو على جميع ما تعد به الدنيا من جاه ومال وسعادة . ونسيت شواغلى جملة ، وهموم اليوم والغد ، وما كنت ماضيا لأؤديه مما يمت بصلة لأسرتى أو عملى . تلاشى كل شىء ، ولم يبق إلا هذه الصورة العذبة المتوجة لجسم رشيق يمضى بها فى مشية معتدلة هادفة على مبعدة أمتار وأنا فى أثرها مركز الوعى فى حركتها اللدنة المتتابعة . وهالنى وأثقل مهمتى هالة الجدية التى تكسوها ، ورصانة الخطو التى تحملها بعيدا عن ألفة المرح وأمل القرب . ترى ماذا أبغى ؟ .

ولكننى أبغى شيئا محددا ولا أملك خطة واضحة . المسألة بكل بساطة

أننى عاجز عن الانفصال عنها مهما تكن العواقب .

إنه أمر خطير فى الواقع . ليس لهوا أو عبثا ولكنه فقدان كامل للذات ، واندفاع أهوج فى سبيل جديد لم يلج من قبل فى جدول أعمالى ، ضعت بالطول والعرض وأصبح الماضى كله فى خبر كان . وبعد مسيرة دقائق مالت الفتاة — أو المرأة — إلى المستشفى ودخلت فواصلت سيرى أمتارا ثم توقفت تحت شجرة . أتعمل فى المستشفى أم تعود مريضا ؟

لم أفكر فى الذهاب على أى حال ولا فى التخلى عن أن أكون ظلا لها .

وتذكرت فى فترة الانتظار حريتى وبأنه لا يمكن إرجاع الزمن خطوة والإفاقة من هذه السكرة الغامرة ؟ !

ومن شدة شعورى بالأسر دعوت إرادتى أن تمدنى بالرعاية الواجبة ، ووردت على ذاكرتى تجربة سابقة متشابهة ولكنها بعيدة عن التطابق .

ثمة سحر كان ، نفثته بنظرة ساجية تحت ظلال حاجبين مقرونين وفترة جنون طال وفعل بى ما لا يقال ، ولكن التجربة الجديدة ، رغم ذلك ، جديدة تماما وغير مسبوقة بنوعها ، ولا تبدو القديمة بالقياس إليها إلا « بروفة » باهتة . ومر وقت ثقيل قبل أن تغادر المستشفى مقبلة نحو موقفى ماضية فى طريقها . ولدى مرورها بى تلقيت نظرة عابرة فلم أدر إن كانت تذكرتنى أم لا ، وذهبت مجللة بجديتها ومناعتها وفتنتها الغامضة ، ساحبة إياى وراءها .

وانقضت حوالى نصف ساعة قبل أن يتراءى لنا ميدان التحرير . وصاحبنى تساؤل دائم عن جدوى إصرارى أو معناه أو الهدف منه ، ولكنه لم يقلل من حدة نشاطى المندفع . وساورتنى احتمالات ممكنة كأن تستقل سيارة فتغيب عن أفقى ولكننى لم أثن عن السير . وأظنها على

ما بمتابعتها ولكنها لم تبد عن أى ردة فعل ، فضلا عن أنها لا يعتريها تعب أو ضجر . وقلت لنفسى إن محاولة التعارف خطوة لا بأس بها ، وربما تمخضت عن جديد ، وهى على أى حال خير من السير الأخرس . وأسرعت لألحق بها ، وهممت بالكلام عندما أقبل نحوها رجل قوى البنيان فخم المنظر وهو يهتف متهللا :

ـــ أشرقت الأنوار .

تصافحا بحرارة فواصلت السير حتى وجدت مأوى قريبا وراء حجرة تفتيش كهربائية . وراقبت انهماكهما فى حديث غير مسموع . وأشار الرجل إلى محل « باباز » فمضت برفقته إليه ثم اختفيا داخله .

أنتظر أم أدخل ؟ .

لبثت فترة تمزق وحيرة ، ثم اقتحمت المحل كأنما أبحث عن شخص ما . وجعلت أجول فى الأركان ببصرى ، فرأيتهما جالسين حول مائدة ، أمامها زجاجة بيبسى وأمامه فنجان قهوة وهو باسط أمامه صفحة يتلوها بعناية وتبادلا حديثا حول التلاوة ، فى الغالب ، فدون الرجل بعض الملاحظات ، ثم صفق داعيا الجرسون فأسرعت إلى الانتظار فى الخارج وخرجا فى أعقابى ، فتصافحا أمام المحل ، أما الرجل فرجع إلى الداخل وأما المرأة فسارت نحو شارع خيرى ، وفى الحال تحركت فى خطى المرسوم .

وبعد مسيرة دقائق انحرفت نحو دكان ساعاتى فوقفت تحت شجرة مستقبلا حرارة متصاعدة وأصواتا متضاربة وزحمة تنقض ما بين مركبات وآدميين وكأنما الدنيا تقذف بأناسها وآلامها من كافة الأنواع والأشكال .

وغادرت المحل بعد ربع ساعة فتواصلت المطاردة المحمومة الخفية .

كيف يتأتى لى أن أهمس فى أذنها بما أريد وسط هذا الانفجار الآدمى الآلى الذى يتعاظم بين دقيقة وأخرى تلهبه أشعة الشمس والأنفاس الحارة ؟ رأيتها تتجه نحو « البنك الأهلى » وتغوص داخله فتوقفت فى ضيق شديد ثم دخلت وراءها متعللا بفك ورقة مالية. لمحتها تقف أمام شباك لعله لصرف الشيكات ثم تقف جنب أريكة مكتظة تنتظر . ولبثت واقفا ، ولكننى خفت أن أثير ريبة فذهبت خارجا وانتظرت أمام بياع جرائد ومطبوعات رحت أتفحصها وأراقب باب البنك فى الوقت ذاته . حتى متى أستطيع اتقاء الشعور بالتعب ؟ .

ها هو الوقت يمضى فى توتر أعصاب وتصلب عضلات . ثم تلوح فى باب البنك بشموخها الفطرى فيخفق فؤادى بارتياح عابر عميق . أتبعها متجدد النشاط متحين الفرصة للالتحام بها ومهما كلفنى ذلك من مخاطرة . ولكنها مالت إلى السنترال . هذا مكان لا يثير الوجود فيه تساؤلا أو ريبة . دخلت بجرأة وانتظرت قريبا من المدخل أتابع سعيها لطلب رقم ما . وسمعت العاملة وهى تقول لها « رقم ١١ » رأيتها وهى تدخل المقصورة وتسحب الباب خلفها . ترى ألم يفتن بها سواى ؟ أى قضاء قضى به على هذا الصباح ؟ ثمة تعب خفيف بدأ دبيبه فى ساقى وهناك شبح الإحباط أيضا . وظل الشك المؤرق . ويوجد أيضا شعور قائم بتفاهة كل شىء خارج نطاق المغامرة المجنونة . ها هى خارجة من المقصورة بوجه مورد بالرضى . تحرك .. تحرك .. لا يجوز التراجع بعد ما كان .

لعلها نسيتنى تماما ولكن لا محيد عن السير . بلغ ركابنا شارع طلعت حرب فبلغ الزحام والحر أشده . لا فرصة ألبتة للمناورة . أسبقها مرة وأتأخر عنها أكثر الوقت لعلها تتذكر رجل البرج . لم أتمكن من قراءة

أصابعها أهي متزوجة ؟ مخطوبة ؟ حرة ؟ . وصادفتها امرأة من معارفها فانتحيتا جانبا ، وتوقفت مائلا نحو باب عمارة . ما أجمل ابتسامتها وأرشق إشارتها . و انتهى اللقاء فواصلت سيرها مارة أمامي لمحتني ما في ذلك شك . وكرد على ذلك زادت من سرعتها ومن جديتها . وأعود للتساؤل عن معنى ذلك . لكن لا حيلة للعقل في الموضوع كله . أو لعله يقرني على سلوكي طالما أجد فيه أملا أو سعادة . يقول لي استمر إذا شئت ولكن لا تتورط في خطأ . وأصبح الشعور بالتعب واضحا . وعرجت إلى شارع البورصة المكتظ بالسيارات الواقفة على جانبيه . ويقل الزحام هنا لدرجة تغرى بالجرأة .ودون تردد أحث الخطى حتى أحاذيها فوق الطوار .

أنظر نحوها فتلقى نظرتي بعين متحفزة . أقول :

— هل ..

ولكنها تقاطعني بصرامة :

— احترم نفسك ..

— أود أن أتشرف ..

ولكنها لم تسمعني غالبا لاندفاعها إلى الأمام . إنه رفض صادق . تكاثف الإحباط والشعور بالتعب .

يجب أن أعدل عن مطاردة عقيمة . لكنني لم أستطع . إنه حكم مؤبد فيما بدا . ورأيتها تدخل مكتبة الفجر الجديد . دخلت وراءها مطمئنا كما دخلت السنترال . ورحت أقلب عيني في الكتب وأسترق النظر .

امتدت يدها البضة القمحية إلى كتاب « القوى الخفية » . ابتسمت رغم القهر ، وتناولت نسخة تحية لها . ثم تبعتها إلى الخارج كالمنوم . ودخلنا أيضا صيدلية واضطررت إلى ابتياع حق أسبرين . بدأت قدماى

تشكوان . توسطت الشمس السماء . عجبت لطول ما انقضى من النهار . و لم أجد أمامى إلا الحظ فلعنته وتساءلت على وجه من أصبحت اليوم ؟ وعبرتنى عتمة الهواجس فلم أدر كيف وصلنا إلى شارع التحرير . ورأيتها ماضية نحو مطعم « الشامى » فسرعان ما نهشنى الجوع . وبجرأة اخترت مائدة مقابلة لها . ودون مبالاة غادرت مائدتها إلى أخرى فى أعماق المحل . صفعة متوقعة على أى حال . وأمرت بطبق شاورمة مع السلطة الخضراء . وختمت بفنجان قهوة وأنا أرقب مدخل المحل بعناية وغمرتنى رغبة فى الاستلقاء وعلى عكس ما قدرت استفحل إحساسى بالتعب . ولما رأيتها تتهادى خارجة قمت من فورى فتبعتها . وتريثت أمام محل أثاث لترى فى مرآة معروضة الطريق وراءها . ورأتنى بلا شك ، وواصلت سيرها فى حالة تنطق بالغضب والاحتجاج . وصدرت إليها إشارات من سيارات عابرة تدعوها للركوب فتجاهلتها ومضت فى شموخ منيع . المصيبة أنها لا تكل ولا تمل ولا توحى بقصد هدف محدد . على الأقل هى تعلم أما أنا فلا أعلم وحتى اليأس القاطع تمنيته . وعثرت بشىء فوق الطوار أفقد توازنى وارتطمت برجل قذفنى بجملة كالطعنة « فتح عينك » . وانضاف إلى الإرهاق العام إحساس بالظمأ ورغبة فى إفراغ المثانة وبألم نصفى فى الرأس . وثمة تساؤل مقلق هبها استجابت فماذا عندى لأقدمه ؟ . لماذا يتمادى بى الجنون بلا طائل ؟ ورأيتها تتجه نحو حديقة « لبتون » فتجدد أمل مبهم . ووجدتها تمضى إلى مائدة عامرة بالرجال والنساء ، وتستقبل بمناورة بالغة . آثرت فى الحال أن أنتظر فى الخارج لشدة الزحام ، ولكن حتى متى أنتظر ؟ ما بى قوة والصبر يتلاشى بسرعة . وتذكرت العمل الذى كان على أداؤه والمواعيد التى أخلفتها ، والرسائل التى كان على

تحريرها . ولكن ما جدوى الندم . واشتد ضغط المثانة.جلت بنظرة زائغة . اقتربت من سيارة واقفة . انهارت قوى المقاومة . استسلمت وأنا أتلفت . وعندما أخذت أزرر البنطلون غمرنى ظل رجل طويل ، مكفهر الوجه ، صاح :

ـــ على السيارة يا وقح !

رمقته بعين خجول معتذرة ولكنه دفعنى بغضب فتسرعت فاقسدا صوابى ، وبغير تقدير للأمر لطمته ، فما كان منه إلا أن انهال على ضربا حتى تركنى على أسوأ حال . جعلت أمسح وجهى بمنديل وأجفف به دما سال من أنفى ثم أسوى رباط الرقبة والسترة . أصبح منظرى زريا ، وتضاعف تعبى وضعفى . على الآن أن أذهب بلا تردد . غير أننى لم أتحرك . حملت تعاستى ووقفت على ساقين تئنان من التوجع . ما زلت أنتظر وأناجى جنونى البين . وتهادت إلى سمعى أغنية « الزهر فى الروض ابتسم » فتابعتها بأسى لا يناسب معانيها بحال . وخطر ببالى بيت أبى العلا :

فسلـــــــم إلى الله ربك فكل ما جاءك من عنده

غير أننى فكرت فى اغتيال الرجل الذى انهال على ضربا ، ولعلها أنسب نهاية لرحلة سخيفة عقيمة لا معنى لها . وانتبهت منزعجا إلى ما حولى وأنا أرى نذر المغيب تحدث بالوجود وتطوق جسدى الذى أنهكه السير وهاضته اللكمات . ولأول مرة أفكر جادا فى الإقلاع عن جنــونى والرجوع من خيبتى القوية .

وهممت بالتحرك عندما رأيتها تغادر مدخل الحديقة وحدها وتتجه بخطوات ثابتة نحو شارع الشيخ ريحان . توهج الأمل من جديد فى قلبى

الذابل وتناسيت هواجسى وتبعتها وأنا أجر نفسى جرا ، وأحد من بصرى المنجذب إلى ظهرها لتكاثف العتمة . وقبيل نهاية الشارع بقليل فقدت ذاتى بغتة . لم أدرك قبل مرور ثوان أننى سقطت فى حفرة . زلزلت مفاصلى وفغمت خياشيمى رائحة ترابية عميقة لم أعهدها من قبل . ولم يبق منى على السطح إلا عنقى ورأسى . حاولت الخروج ولكن خذلتنى قواى الخائرة .

وأرسل عينى صوب المرأة بآخر ما أملك من طاقة على اللهفة فلا أعثر لها على أثر . أفلتت إرادتى وأشواقى ، وهيهات أن الحق بها . الأمر يقتضى معجزة إن يكن ثمة مجال للمعجزات .

وانتظرت أن يقترب منى عابر سبيل لأستنجد به . وبلغ منى الإعياء غايته فأسندت رأسى إلى حافة الحفرة مستسلما إلى قدرى

السيدُ «س»

عبثا أحاول تذكر حياتى فى مجراها المفعم بالوجود قبل ساعة الميلاد . تلك النبضة المنبثقة من تلاق جرثومة متوترة ببويضة متلهفة فى أول مأوى آمن يتاح لى . فى أى غيب كنت أهيم قبل ذلك منطلقا مع تيار متصل غير محدود من الذكور والإناث ، تشارك فى مهرجانه قوى عديدة من النبات والحيوان وعناصر الطبيعة من ماء وتراب وحرارة وبرودة ، فى تناغم مع دورة الأرض والقمر والشمس فى حضن درب التبانة العظيم الماضى فى حوار دائم مع دروب لا نهاية لها . لعل إشارات من ذلك الغيب تتجلى فى احلامى فى صور أفراح غامضة وكوابيس ثقيلة سرعان ما تتلاشى فى كون النسيان العنيد مخلفة فى النفس قلقا يتلاطم مع الواقع الصلد ناشرا تساؤلات عديدة ودعوات مغرية للرقص والتنقيب . أما كهنة آمون فقد أخفوا أسرارهم . وأما كهنة الهند فقد أعلنوا سيطرتهم على مسيرة الماء البشرى منذ أقدم العصور ولكن لا سبيل إلى اليقين فى هذه المسألة ، ولو سلمت برأيهم لتعذر على معرفة الخطيئة التى ارتكبتها فى زمن سحيق ، والتى يكفر عنها شخصى الراهن بمعاناته المستمرة التى لا يجد لها تفسيرا . فلنؤجل القول فى ذلك إلى حينه ولنلق نظرة على يوم الميلاد . إنه يوم تخفق له أفئدة البشر وتحوطه بالبركات من خلال طقوس أبدية . يجيء المخاض على أنغام أهازيج شجية ، تنطرح المرأة على الفراش فى جو مضمخ بأنفاس الخلق ،

ترعاها يد الخبرة ، وتحدق بها القلوب المترعة بالأشواق ، هامسة بالإشفاق داعية بالسلامة ، مترقبة إذن يد العناية بالفرج ، مسبحة للخالق ، منتظرة بين آونة وأخرى أن تنجاب الدماء الحارة والأنفاس المتلاحقة عن صرخة حياة جديدة ، مكللة بالظفر ، في لحظة صراع محتدم مع الموت المقدس . ومن حسن الطالع أن الأشهر التسعة المنقضية في الظلمات لم تتلاش في العدم ، حفظتها من الضياع ذاكرة خاصة غير الذاكرة المرصودة للحياة اليومية . سجلت حياة النطفة المزهوة بتوحدها كما سجلت تحولها إلى علقة . وعليه فلم يندثر تقلبها بين السرور والألم ، وما تلقت من انبساط وانقباض . من راحة وتوتر ، من رضى وسخط ، وما واكب نشأة العظام من اضطراب ، واستقبال اللحم بنشوة سائحة ، أما المخ والوعي فقد أضفيا جدية جاوزت حدود المقام . أصبح الغذاء من هموم الحياة اليومية ، والفضاء غير المحدود مدعاة للتأمل ، والزمن عبئا لا يستهان به ، حتى متى يستمر ذلك ؟ ، وما معنى هذه الحياة ؟ ، ولكن تغير الأمر عند اقتراب الفترة من نهايتها ، وما زامل ذلك من إحساس بالشيخوخة ، فلن يهون أبدا الرحيل إلى المجهول ، أهو العدم ؟ ، أثمة حياة أخرى ؟ ، ويأبى العقل أن يصدق ذلك أو يتعلق بأمل مخادع ، وما هي إلا خدعة سخيفة لا معنى لها . وما أن تلقفتني يد الدنيا حتى محي الماضي محوا تاما فكأنه لم يكن . هنا ينقض الضوء والطقس والأنفاس والأصوات ويعلو البكاء لأول مرة . وتمر فترة لا أمان فيها وكأنني أهوى في فراغ ، ويمر دهر حتى ألف في الأقمطة وكأنما رجعت إلى موطني المنسي . وينسكب الدفء في فيّ ، ويحتويني حضن ستبقى ذكراه معي طويلا .

وتمر فترة يتذكرها الحالمون جنة وارفة متناسين متاعبها وأشجانها ، من افتقاد الأمان والشبع أحيانا ، واقتحام صوت مزعج أو مداعبة قاسية ، ورضع الحزن مع لبن أم لا تصفو لها الحياة دائما ، وغزو أمراض عدة تفسد مذاق الحياة . ثم تتطفل الحضارة بثقلها لتصب الوافد الجديد فى قالب مهذب ، يسيطر فيه على أجهزته المختلفة ، ويتعلم المشي والكلام ، ويستعان على ذلك بالحوافز والردع ، ولا بأس بالزجر بل والضرب ، وتلوح السعادة كخيال لا يتحقق أبدا . وما أن يقوم على رجلين ، وربما قبل ذلك ، حتى يلحق به آخر فيشعر شعورا خفيا بأنه أصبح موضة قديمة ، وأنه يدفع دفعا إلى دخول عالم جديد هو عالم التربية الواعية الهادفة . ويتناسى الجاحدون عهده ، ويفكرون فى طريقة مهذبة للتخلص منه ، فيعرفونه بالله ، بجحيمه قبل جنته ، وشياطينه قبل ملائكته ، فلم أدرك مزايا الجنة ولكنى ارتعدت أمام رعب الجحيم ، ولم أتذوق حلاوة الملائكة ولكنى تجرعت غصص الشياطين ، وأحدق بى عالم منذر بالويلات . وألفت النهر والصفع واللعن والعصا ، وبذلت قصارى جهدى لأنعم بأبسط المطالب وأتفادى من العدوان . وأحمل ذات يوم إلى المدرسة فأضيف إلى عذاب الأهل عذاب الأغراب ، وأتساءل أى حياة هذه ، وهل لو كنت خيرت كنت اخترتها ؟ . وإنه لمما يبعث على الضحك أن أتذكر تلك الفترة فى زمن قادم باعتبارها الفردوس المفقود . ولكن مهلا فلعل هذا الحكم لا يخلو من صدق ، فما خلا يوم من ضحكة صافية أو لعبة جديدة أو هيام عذب بأصحاب ومواسم وحلوى وسينما وغناء بالإضافة إلى ساعات صفو وهناء فى رحاب الأسرة . وحتى

فى أشد حالات الضيق هناك الخيال ألوذ به فيرحل بى إلى عوالم غريبة ، ويخلق الحياة فى الجماد ، ويبدع الحكايات . ويتلقى من الوجود صورا للأشياء والنساء والرجال والعلاقات سينضجها الزمن ويحولها إلى معان ما كانت تخطر بالبال . وبفضل ذلك كله أتدرب على تمثيل أدوار لم يأن زمانها بعد، فأقوم برحلات إلى بلاد الواق الواق ، وأخوض معارك ضارية ، وأتزوج ، وأتاجر وأربح أموالا طائلة . وأصلى وأصوم فأضمن الجنة . ولكن أيضا أتشاجر فيشج رأسى ، وأعشق قريبة تكبرنى بعشرة أعوام ، وأتحايل لأغويها فآكل علقة مناسبة . من علمك هذا الكلام يا ولد ؟ خبر أسود ، وأنت فى البيضة ، وأتوسل إليها دامع العين بألا تشكونى إلى أمى . ولكن من علمك ذلك ؟ ، فى السينما رأيت أشياء ومن شباك بدروم جارتنا الفقيرة رأيت أيضا ، ألا تعرف جزاء من يتلصص على الناس ؟ توبة .. توبة . ولا تتاح النجاة حتى أوافق على حمل رسالة سرية منها إلى أخى !! . ويجد جديد .فتحصل أمور ، وتلوح أغراض ، ويتكلم مدعو الحكمة من الأصحاب ، إنه البلوغ . الشعر لا ينبت لغير ما سبب ، والصوت لا يخشوشن لمجرد التغيير ، وتمتلئ النظرات البريئة بدماء الغرض والهوى ، وتحل بالبدن قوة مجهولة ماكرة غادرة ، تضغطه بدغدغة حادة ، وتسكب فى الشرايين نارا ، يستهين بزواجر الجحيم ونواهيه ، يحول بينى وبين الله والطاعة والعهود ، ولم تعد الأشياء هى الأشياء ولكنها تنقلب موضوعات للرغبة والحلم والسطو ومرتعا للخيال النهم . وربما تحصل أمور من نوع آخر وفى نفس الوقت ، كردة فعل ، وتكفير حاد يروى ظمأه من ندى السحاب الأبيض المشغوف بالتعالى ، فيخفق القلب

خفقة لم يحقق مثلها مذ كان فكرة هائمة فى عالم الغيب ، ويستوى الحب أمامه كنجمة متألقة فى سماء مكفهرة تحوطه العناية الملائكية وتسبح فى السماوات السبع ، تمطر وابلا من الأفراح والآلام ، فتنبت فى الأرض أزهارا وأنغاما ، وتستجيب للغة خفية . فنثب هنا وهناك وراء المستحيل ، فى عالم مسحور فيه كل شىء إلا الأمل . مجدة وراء موسيقى الكلمات وحمرة أوراق الورد وفضية شعاع القمر وحكمة صمت الموت . وبعد عناء طويل يجىء الشك على غير ميعاد ، ملوحا بسياط محملة أطرافها بالرصاص ، كلما ألهبته تحدى العرف والأب والأم وأركان المعبد ، وبشىء من التردد يرمى بنفسه فى بئر الجنون الأحمر ، وينهل من شراب مزاجه الشهد والسم ، ليمحق المكر والخداع ، بإشباعه حتى الموت ، وتركه جثة من الخمود والأسى . هكذا . هكذا.. هكذا. وبوحى من حظ حسن تتراءى مرآة عاكسة للزمن بلا حلم أو خيال. كان من الممكن أن يحدث غير ذلك فما هى الا احتمالات تطاول احتمالات ، ولكل قصته. من أجل ذلك تمتلئ المدارس والمعاهد وتمتلئ السجون . وأمضى فى سبيلى طاويا ذكرياتى فى زاوية أرجو لها النسيان . أصبحت كائنا جادا ، أحيى الأهل صباحا والأصحاب مساء ، وأتلقى فى اهتمام بالغ حظى من تراث البشر وخبرتهم . وتهل علينا متاعب من نوع جديد . ما رأيك هذا الدرس يتطلب عمرا لإتقانه؟ ، أجل .. وهناك أيضا الأزمة الجديدة ، صدقت ونحن مدعوون غدا لاجتماع هام ، صدقنى لا مناص من أن يذهب هذا الجيل كله إلى الجحيم . وماذا عن مستقبلنا نحن؟ ، لا شىء يعادل ما نبذل من جهد . ورغم كل شىء تبدأ الحياة العملية متعثرة محدودة الأمل ، محفوفة

بحياة سياسية غاية فى القلق والاضطراب ، وحياة جنسية لا تقل عنها قلقا واضطرابا . وتتعدد الطرق هنا أيضا . كان يمكن بشىء من الانتهازية أن يقبل وجه أكثر إشراقا وأقل جدارة . وكان يمكن التمادى فى التجارب المرة حيث يفضى الطريق إلى السجن أو الصعلكة . ولكن قادتنا الرغبة الحميمة فى البقاء إلى الرشد المتواضع فاستقررنا فوق كرسى الروتين تحت مظلة من نسيج العنكبوت ، ورضينا بلون تقليدى من الحب أفضى بنا إلى نوع تقليدى من الزواج ، ورحنا نعبر الجسر الذى عبره قبلنا الملايين ، نعمل بلا حماس ، ونشهد بعين الأسى تبلد عواطفنا ونقار الأسر النامية وصراع الجنسين المعروف ، وتطوف بنا مسرات لا يستهان بها ، مثل الأبوة الدافئة ، وانتصارات صغيرة تتحقق برضا المدير أو نجاح نكتة مكشوفة أو كسب عشرة طاولة وإحراز فوز سياسى مؤقت ، وهكذا .. وهكذا .. وهكذا . ونصحو ذات عيد ميلاد فإذا بالشباب قد ولى وصمتت أهازيجه ، وجاء عصر العقل مصحوبا بالعناء الاقتصادى ، والدروس الخصوصية ، وجزية الطب والدواء ، والشجار لأتفه الأسباب ، والبكاء على الأطلال ، وارتفاع ضغط الدم لأول مرة ، وأكثر من جراحة إجهاض تحت شعار تنظيم الأسرة ، وإقبال شركة التأمينات مشكورة للمشاركة فى الرزق المحدود . ويحفل سيرك الأبناء بألعابه المتنوعة ، فهذا ابن يهيم فى ملعب الكرة ، ويرتكب الثانى حماقة كادت تغرق السفينة كلها ، أما الثالث فقد استبدل بإله الآباء والأجداد خواجا غير مفهوم اللغة ، وأخيرا فقد أطلق الرابع لحيته وقذف الجميع بتهمة الكفر . وانهالت على التهم من كل جانب ، رجعى .. جاهل .. تقليدى .. كافر . ونفست شريكتى

عن بلواها بتحميلى مسئولية كل شىء ، نتيجة التدليل والدلع ، ربما يعاقبك على أنانيتك وزيغان عينك وسوء معاملتك لى . و لم أصدق أذنى ، ورحت أذكر بأغانى عبد الوهاب فى ضوء القمر على شاطئ النيل ، والسعي المرهق لاختيار هدية إحياء لذكرى الزواج ، وسهر الليالى إلى جنب فراش المرض . رغم ذلك كله سارت القافلة بسلام على قدر الإمكان . ارتفعت درجة بعد درجة وكبر المرتب وتغير المكتب والحجرة ، ولولا الغلاء المتصاعد وهزائم الحروب المتعاقبة لمضيت برأس مرفوع مكلل بهالة روتينية وشمخة بيروقراطية . ولكن ذل الحاجة والتورط فى الأعمال الإضافية خرقا للائحة ومعاناة الأبناء ومرارة شكواهم من قلة المصروف ، كل أولئك أطفأ مشاعل المجد وأحل روح التسول مكان زهو العظمة . حتى الخادم اضطررنا للاستغناء عنها أو أنها بالحرى استغنت هى عنا ، و لم أجد إلا المواعظ ألقيها يمنة ويسرة ، لاخيار فإما النجاح وإما الموت ، الترف من سوء الخلق ، اعرضوا عن الدنيا تقبل عليكم ، سيدنا محمد عاش على التمر واللبن ، وسيدنا عمر تغير لونه من أكل الزيت ، والدولة الرومانية سقطت لانغماسها فى مطالب الجسد ، كذلك الدولة الإسلامية . ويردون علىّ ومعهم أمهم . ألق مواعيظك على الحكام ، على أصحاب الملايين ، على اللصوص والخطافين والطفيليين ، نحن نريد لقمة وبدلة وأقل مصروف معقول ، أى مدير أنت ؟ ، ما جدوى خدمتك الطويلة فى حكومة لا ترعى حقها لموظفيها ، تنفق على الحفلات بغير حساب وتضن عليكم بالمليم . وأتساءل ما العمل ؟ . يجب ألا تتوقف

حياتنا وإلاضعنا . الأسهل أن ندبر حياتنا فى حدودنا المتاحة من أن نحاسب الحكام والمسئولين ، ونعرض أنفسنا لمخالبهم الحادة المفترسة ، ألا ترونهم يرمون أعداءهم بالإلحاد دفاعًا عن غنائمهم ، فإذا قامت ثورة إسلامية تنمروا لها وللإسلام دفاعا عن غنائمهم ؟ ! ، فلا الإسلام يهمهم ولا الإلحاد ولا يعبدون إلا المال والجاه ، وأنا رجل ضعيف ، بدأ الشيب زحفه إلى شعرى قبيل الأوان ، ولا غاية لى فى دنياى إلا أن أبلغ بكم بر الأمان ، فساعدونى يرحمكم الله كى ننجو من الغرق . وفى زحمة الغياهب تعترض سبيلى تلك المرأة اللعوب وتغمز لى بعينها . يا للهول .. هل بقى فى شىء ما زال يلفت نظر الحسان ؟ . فى وقدة الاشتعال داعبتنى نسمة متألقة بالزهو ، وفرحة واردة من الغيب ، حتى اختلت فى مشيتى وأصررت على حلق ذقنى كل صباح . وعند حساب التكاليف المطلوبة بحدها الأدنى حضرنى ملاك الرحمة ، ألا يلزمنى تقديم هدية ، أو اكتراى مكان ولو ليوم واحد ، وإعداد عشاء وشراب كالأيام الخالية ؟ . وكبحت أهوائى بقوة لا تتاح إلا للمفلسين ، وهربت معتلا بمختلف الأعذار ، وخرجت من التجربة مرسوما بنظرة احتقار لا تزول مثل الوشم ، وأشاعت الغندورة فى كل مكان بأننى مصاب بداء خفى كريه الرائحة وكلما صادفتنى فى طريق هتفت بى كيف حالك يا أقرع ؟ فأحمد الله على أننى رأيت برهان ربى فى الوقت المناسب. وهكذا.. وهكذا .. وهكذا . وأصحو ذات يوم لأجد أن الكهولة أيضا

قد ولت ، وأننى أتخذ الإجراءات المعهودة تمهيدا للإحالة على المعاش وأننى أودع بصفة نهائية التعاليم المالية ولائحة المخازن والمشتريات . وبقدرة الرحمن الرحيم انحلت عقدة الأزمة فتخرج الأبناء ومضى كل فى سبيله . ووجدت وشريكتى أنفسنا بين يدى الشيخوخة بلا دفاع ، فبالإضافة إلى الضغط أصبحت ذا كلى عليلة وعانيت من أرق مستمر ، أما الشريكة فقد خلعت ثوب الأنوثة وباتت بين بين ، وخانها عضوان هامان هما القلب والجهاز الهضمى ، واصطبغت بصفرة ضاربة إلى الزرقة ، ونبتت لها شعيرات عند طرف أنفها واستغرقتها الصلاة والصوم . ومهما يكن من أمر فحالنا خير من حال كثيرين ، ألم أتم رسالتى على خير وجه ورغم الظروف الشرسة المتحدية ؟ ! . ولكن للأسف نجدت أمور لم تكن فى الحسبان فاثنان من الأبناء وجدا عملا مجزيا فى الخارج فودعناهما بقلب حزين ، وأصبح أحد الاثنين الباقيين زبونا مزمنا للشرطة والنيابة ، أما الأخير فقد تورط فيما لم يجر لى فى بال وحكم عليه بعشرين سنة . وربما استطعت أن تتصور حالى ولكنك ستعجز تماما عن تصور حال شريكتى . إنها لا تكف عن الدعاء على الدولة برمتها . ونابت عن ابنها السجين فى تكفير المجتمع كله ، وأرادت أن تحج لتدعو على الدولة فى بيت الله الحرام ولكن من أين لى المال الذى أحقق به رغبتها ؟ ! . وجعلت أهرب من البيت إلى الصحاب فى المقهى ، ونازعتنى نفسى إلى زيارة الأماكن التى شهدت طفولتى وصباى وأحلامى السعيدة ، وتتابع أمام عينى شريط حياتى بجميع ما حفل به من متناقضات وعبر ، وكلما شيعت صديقا أو زميلا إلى مثواه الأخير لاح لى يومى وهو يقترب ، وقلت لامرأتى إن خير ما نفوز به فى هذه الحياة هى الحكمة ، فإذا عرفناها عرفنا الرضا

وسلمنا بأنه لا شيء فى الحياة يستحق الحزن أو الأسف ، فلنسلم أمرنا لله فكل ما جاءنا من عنده . ولم يمهلنى المرض لمعاشرة الحكمة طويلا ، فانطرحت على الفراش بلا حول وقال لى كل شيء إنها النهاية . وتساءلت ترى ما مذاقك أيها الموت ، وكيف تحل إذا حللت ، وعلى أى حال نترك هذه الدنيا المليئة بالإغراء والخداع . وذات صباح دهمتنى هذه اللحظة الفريدة المقدسة ، فقدت الوزن والتوازن وانغمست فى شعور كامل الجدة لم ينبض به الوجدان من قبل ، قلت إننى سأسبح أو أطير وإننى أستقبل عالما لم يطرق من قبل ، وأن الضوء هادئ لدرجة السحر وأنه بلا نهاية ، وأننى مستسلم بلا اكتراث أو ألم أو ضيق وأن أهازيج البشر تعزف من حولى . وانفلت من الجسد إلى الحقيقة المطلقة ، وتجلى لى ما قبل الميلاد وعبورى بالدنيا والمستقر الأخير منظرا واحدا جامعا متكاملا كالوردة الكاملة لا يخفى لها أريج ولا سر فشملت بالاستنارة والسعادة الحقيقية ، ولم يبق معى من ذكريات الدنيا إلا المثل الشعبى الذى يقول :

« اللى تحمل همه ما يجيش أحسن منه »

شَارِعُ أُلْف صَنفْ

شارع ألف صنف ، للأحلام والحقائق ، مطهى الرغبة فى سخائها وتنوعاتها ، وتلخيص مركز معجز لشهوة الحياة . تقوم على جانبيه ذوى الطوارين العريضين المسقوفين أشياء ناطقة بألف لسان . حوانيت متلاصقة ومتراصة مبهرة بأناقتها ، ثمينة بمعادنها ؛ تخطف الأبصار بشتى الألوان ، فيجد كل عضو فى الجسم البشرى وكل نزعة فى الجهاز العصبى ما يشتهيه . من أغذية متعددة الجنسية ومرطبات وخمور وملابس وأدوات منزلية ، وروائح عطرية ، وأدوية ومقويات ولعب أطفال ، وسيارات وأجهزة طبية وكهربائية ووسائط للاستهلاك والإنتاج ، يضطرب بينها تيار من الخلق لا ينقطع من الجنسين وكافة الأعمار ، سوقا لمن يشترى ، ومرتادا لمن يتفرج . وفى وسط جناحه الأيمن يقع مقهى « عكاظ » ، مقهى وخمارة ومطعم ولكنه يختص برجال الأعمال وعقد الصفقات ، ونذر أن يطوف به زبون عادى ، بالإضافة إلى القوادين والنصابين وبنات الهوى ممن لا تتم صورة الوجود إلا بهم . وفى الأدوار العليا من العمائر توجد فنادق وبنسيونات ، يأوى إليها عادة رجال الأعمال غير القاهريين ، وفى رحاب حصانتهم ينعم أهل الهوى بمنازل للدعارة شبه آمنة . من أجل ذلك جرى تاريخه منذ قديم فى سلام نسبى ، فلم ترد أخباره فى صفحات الحوادث شأن غيره من الأماكن التى تلاحقها عين الشرطة الساهرة . ومن أجل ذلك أيضا لفت مجىء ذلك الزبون الطارئ

الأنظار ، وبخاصة وأنه لم يزر مقهى عكاظ زيارة عابرة لتناول فنجان قهوة أو كأس كونياك أو طبق مكرونة ، كلا لقد اختار مجلسا فى عمق المقهى غير بعيد من البوفيه . يحتله من الضحا حتى منتصف النهار ، ثم يعود إليه من الخامسة حتى وقت التشطيب . ذو مظهر متواضع ، ببدلة اقتصادية ، ووجه أربعيني ناطق بأصله الشعبى ، فلا هو من رجال الأعمال ، ولا من أصحاب الصفقات ، ولا من رواد الفرجة والشراء ، ولا من طلاب اللهو . يأمر بفنجان قهوة ، ويجلس هادئا مبرأ من سمات الانتظار والتململ ، لا يسعى لمعرفة أحد ولا يشجع أحدا على معرفته ، كأنه غائب تماما عما يدور حوله . وتلك واقعة تمر فلا تستحق الذكر فى أى مقهى إلا مقهى عكاظ الذى لم يألف إلا أعضاءه المعروفين . لذلك اكتسب شهرة منذ الأسبوع الأول لظهوره . لفت الأنظار وأثار جملة من التساؤلات . وتطوع قواد لاستخراجه من قوقعته فجلس فيما يليه وسأله عن الساعة ولكن الرجل أشار صامتا إلى ساعة المقهى المثبتة فى الجدار فوق الميزان ولم ينبس بكلمة . وضاق به الجميع واعتبروا حضوره غزوا لحصنهم الحصين . ومر وقت قبل أن يعرف اسمه بمحض الصدفة إذ رن جرس التليفون فرفع نادل السماعة ثم نادى :

ـــ السيد منصور زيان .

فقام الرجل إلى التليفون تحدق به الآذان .

ـــ آلو .

ـــ ...

ـــ هات ما عندك .

ـــ ...

وطالت مكالمة المتحدث ، وأخيرا قال السيد منصور :

— طيف .

وأرجع السماعة إلى موضعها وعاد إلى مجلسه دون أن يشفى غليل أحد ، فازداد غموضا وازدادوا ضجرا . ولم يجدوا بدا فى النهاية من إهماله . وشغلوا عنه بحادث يعتبر غاية فى الاستثناء فى هذا الشارع ، وهو كبس الشرطة لبنسيون وسوق من وجد فيه من نساء ورجال إلى القسم . تبودلت نظرات حائرة ، ونوقش الموضوع على أوسع نطاق ، كيف حدث ما حدث مما يعد خرقا للتقاليد المرعية ؟ ! . ونظر قواد ناحية منصور وهمس :

— جاء النحس مع النحس .

ولم يكترث أحد لقوله . ولكن لم يكد يمر شهر على الحادث حتى استدعى كبير من رجال الأعمال بتهمة التهرب من ضرائبه المستحقة ، فاهتزت الأفئدة وانتشر الذعر مثل صرخة بليل . ماذا يحدث فى الدنيا ؟ . ليس اليوم كالأمس . ثمة نذير شر يزحف . ولغير ما سبب منطقى تضاعف الضيق بالسيد منصور باعتباره شؤما كما قال القواد ذات يوم . وعندما ضبطت سلع مهربة من الجمرك وقبض على أصحابها انفجر الذعر وعقد الرجال اجتماعا للتشاور . شعروا بأنهم مطاردون وبأن دورهم آت لا ريب فيه . وقال أحدهم :

— عنت لى فكرة ، إنه ليس نحسا فحسب !

— تعنى سى منصور ؟

— أجل .

— إنه مرشد ذو دور مرسوم .

— ولكنه لا يبارح مجلسه ؟

— لا علم لنا بما يفعل قبل ذلك أو بعد ذلك .

وتراكم الشك حتى صار يقينا بلا دليل . لم يجئ لتزجية الفراغ . ماذا يحمله على المجيء يوما بعد يوم ؟ . ما عمله ؟ . كيف يعيش ؟ . وأجمعوا على أنه مرشد لحساب جهة معادية وأن عمله لن يتم إلا بالقضاء عليهم أجمعين . واقترح بعضهم التخلص منه . ولكن ألا يعد ذلك حمقا غير مجد ، واستفزازا لقوة مجهولة لا يستهان بها ؟ . واقترح البعض احتواءه وشراءه بأي ثمن ، ولديهم المال والنساء . ولعل مناسبة الاحتفال برأس السنة الجديدة أن يتيح فرصة فريدة لا صطياده . وتزين المقهى في الليلة السعيدة بالورد وتشكيلات المصابيح الكهربائية الملونة ، وتوسطته طاولة طويلة صفت فوقها قوارير الويسكي بغير حساب ، وجلس إليها في الوقت المناسب الرجال من أكبر رجل أعمال إلى أصغر قواد ، وبقي الرجل وحده بمجلسه المختار . وانضمت إلى الموجودين مجموعة مختارة من الحسان في أحسن صورة وعلى أتم استعداد . وانطلقت الأنخاب كالشهب حتى تغلغل المرح في أعماق الكآبة . والتفت أحدهم نحو الرجل وقال :

— هلا شرفتنا يا سيد منصور ؟

فبسط راحته على صدره شاكرا صامتا مصرا على توحده . ولكن الآخر لم ييأس فملأ له كأسا ورجا أقرب الجلوس إليه — امرأة — أن تقدمها له ففعلت برشاقة وقال رجل الأعمال :

— من أجل خاطرنا .

ولكنه أعاد الكأس إلى الطاولة معلنا عن شكره بإحناءة من رأسه لائذا بصمته . وتساءل رجل الأعمال مداريا وقدة غضبه :

ـــ كيف تمر بك هذه الليلة كغيرها من الليالى ؟

فخرج منصور من صمته قائلا فى غير ما اكتراث :

ـــ الواقع أنها كغيرها من الليالى .

فقالت المرأة محتجة :

ـــ لا .. لا .. وأستطيع أن أثبت ذلك .

وقال رجل أعمال آخر :

ـــ أذكر رجلا يشبهك تماما إلا أنه يرتدى جبة وقفطانا .

فقال منصور :

ـــ لعله أنا دون سواى !

ـــ ولكنه بجبة وقفطان ؟

ـــ هذا هو ردائى فى غير فصل الشتاء !

ـــ بدلة فى الشتاء وجبة وقفطان فى الصيف ؟

ـــ بالتمام والكمال !

وتبادلوا نظرات ساخرة ، غير أنهم تقدموا خطوة جديدة مع تماديهم فى الشراب فراحوا يقدمون أشخاصهم واحدا فى إثر واحد ليحملوه على تقديم نفسه ، ولكنه تابعهم فى غير اكتراث وتحدى عربدتهم بالإصرار على الصمت . أى إهانة ! . وقالت المرأة إن هذا يعادل أن تتعرى امرأة أمام رجل فيتخذ من جسدها مسندا لرسالة يروم كتابتها . وسأله الرجل واجما :

ـــ ألا ترغب فى تقديم نفسك ؟

فأجاب فى برود :

ـــ كلا .

أيقنوا من أنه يتكلم من موقع قوة وثقة وأن وقاحته لن تقف عند حد .

وانقلب الرجل غاضبا فهتف :

ــ اغرب عنا قبل أن تفسد علينا ليلتنا !

فقال بتحد :

ــ الواقع أنكم تفسدون على ليلتى .

ــ لا خير فيمن لا يحب الناس .

فكرر ساخرا :

ــ لا خير فيمن لا يحب الناس .

وخافوا إن استسلموا للطعام والشراب أن تنحل عقدة ألسنتهم فتبوح له بأسرار ينفذ بها إلى مصارعهم ، ففسدت السهرة بالفعل ومضت فى توتر وتعاسة . وأقسموا ليهتكن سره . وعهدوا إلى قواد معروف بالنشاط أن يتجسس عليه ليوافيهم بخبره . وانطلق الرجل فى إثره وانتظروا .

ومرت أيام وكل شىء يجرى على حاله ولكن الرجل لم يرجع من رحلته ولم يظهر له أثر . وانتظروا أكثر وسحابة سوداء تمطرهم بالقلق ولم يسفر الانتظار عن شىء . فقد المرشد لا ريب فى ذلك ، وفى أثناء ذلك سقط متهرب آخر ومهرب مخدرات ذو وزن فى الهيئة الاجتماعية . وأظل الذعر الشارع العتيد فانطفأت أنواره . وتطوع قواد جديد بالعمل مدعما بحذر أشد ولكن ظلمة المجهول ابتلعته كما ابتلعت صاحبه. وتمطى كابوس الخوف فاختفى القوادون ، وتعطلت الدعارة ، وانكمش الانحراف . ولبث الرجل الغامض بمجلسه ، أفنديا فى الشتاء وبلديا بقية العام . وتتابع السقوط وهرب من هرب . وقال له أحدهم وهو يتأهب للذهاب :

ــ عرفتك ، ما أنت إلا عميل لدولة أجنبية ، اختارتك لتحطيم القوى

الوطنية ..

فهز الرجل رأسه فى دهشة وتساءل :

ـــ عم تتكلم أيها السيد الفاضل ؟!

وتحير صاحب المقهى العجوز الذى رأى كثيرا وسمع كثيرا . رأى الحادثات وهى تقع ولكنه لم يعرف لها تفسيرا . دالت دولة الرجال الأقوياء فتساقطوا مثل أوراق الشجر الجافة . انقلب الشارع من حال إلى حال ، ذهب أناس وجاء أناس ، تراجع زبائن وقدم زبائن ، ألغيت وظائف ونشطت وظائف جديدة ، واستقبل المقهى روادا عاديين لا علم لهم بسابقيهم ، ولم يبرح الرجل الغامض مكانه ، ولا بدا عليه أنه يدرك من حقائق الأمور أكثر مما يدرك هو . ويجىء قوم من هواة المعرفة فيحدقون بصاحب المقهى ويقولون :

ـــ كل شىء حدث تحت سمعك وبصرك فخبرنا عما حصل يرحمك الله ..

فيقول الرجل ببراءة :

ـــ علمى علمكم يا سادة ، وها هو الرجل الذى جعلوا منه أسطورة ، مثلى ومثلكم ، ما سمعت منه كلمة غريبة ولا شهدت منه فعلا غير مألوف ، فلست أملك علما أضن به عليكم ، وما أعرف أكثر مما تعرفون من أن دنيا برمتها اختفت كما تختفى مدينة فى أعقاب زلزال مدمر ، ونشأت مكانها دنيا جديدة ، فسبحان علام الغيوب ..

المسخ والوحش

(التنظيم السرى)

أعجبتني حكاية الشاطر حسن فى بلاد الواق الواق . غادر ذات يوم أسرته كما يغادر الفرخ بيضته وراء حلم غامض فأسعده حظه الميمون بلقاء سيدنا الخضر . وقرأ سيدنا فى وجهه براءة الفطرة ونقاء الحلم فحدثه عن مأساة مسوخ تعساء مسخهم وحش آدمي أحجارا غير كريمة فأشعل فى قلبه رحمة وهمة . ووهبه فرصة فريدة لتحرير المسوخ وإرجاعهـا إلى إنسانيتها المهدرة وذلك بقتل الوحش . ودله على المكان الملقاة فيه الأحجار الممسوخة، والوسيلة التى يقتل بها الوحش، فمضى إلى بلاد الواق الواق ورأى بعينيه الحزينتين الأحجار الآدمية . وتربص بالوحش حتى جاء فى وقته المعلوم فأكل وشرب ونام ، فوثب عليه وقتله ، وفى الحال تلاشت الصفة الحجرية واستوت الأحجار بشرا يهللون فرحا ببركة الحياة المستردة . ورحت أتذكر الحكاية وأنا بمجلسي المعهود فى خمارة نجمة الصبح ورأسى مشعشع بالنشوة . وكالعادة غبت فى أعطاف حلم وردى ، ثم انتبهت على رجل يجلس إلى جانبي يمزج النبيذ بعصير الليمون ، ملتف بعباءة أرجوانية ، معمم بعمامة خضراء ، يبهر الناظر بلحية بيضاء مسترسلة حتى ثغرة صدره . ولم يكن التطفل من شيم أهل خمارتنا ولكن الأنس حل بى فحدس قلبى أنه صديق يشع الخير من ومضات عينيه . قلت مرحبا :

— أهلا .

فقال بنبرة باسمة :

— صحتك .

واستسلمت للنشوة إلى مراقيها حتى هتفت :

— هذه ليلة ولا كل الليالى .

فسألنى بعذوبة :

— كيف اهتديت إلى هذه الخمارة التى بالكاد لا يعرفها إلا روادها ؟

فقلت جذلا :

— بحسن الحظ وحده ، ومن يومها لم يعد يؤرقنى شىء ..

فتساءل بصوت يمتزج فيه الحنان بالسخرية كما يمتزج فى قدحه النبيذ بالليمون :

— ولا المسوخ ؟ !

دقت كلمة المسوخ ناقوس اليقظة فى قلبى فتساءلت :

— أى مسوخ تعنى ؟

— هم مسوخ ذوو مسوخ من ضحاياهم ، ولا نجاة لهؤلاء أو أولئك إلا بقتل الوحش !

فتهدج صوتى وأنا أقول :

— لعمرى إنك لسيدنا الخضر دون غيره !

— لا أهمية لذلك ، المهم من يكون الشاطر حسن ؟

وهم بالقيام فأمسكت براحته وسألته بشغف :

— متى أراك ثانية ؟

فقال واقفا معلنا عن قامته الطويلة النحيلة :

— لا أهمية لذلك .

وذهب مشيعا بمودتى الخالصة. وبقوة آسرة، ودون مقدمات، آمنت بأننى صاحب رسالة وأنه آن لى أن أودع أحلام اليقظة . ولكن من يكون

المسوخ ؟ ، ومن يكون مسوخ المسوخ ؟ ، ومن يكون الوحش ؟ .
وكيف فاتني أن أستجوبه ؟ . ولم يغب عني السر ، فالحقيقة أن محضره يشتت الإرادة . وجدتني في محضره طوع خواطره ، مسلوب المنطق ، لا أزيد عما يريد حرفا . هذه هي الحقيقة . ولذلك لم يداخلني شك في أنه ولي من الأولياء . وأدركت بعد فوات الوقت أنني لم أنتبه لقيمة الوقت ، وأنني عبرت معه لحظة من اللحظات التي تسترجع فيما بعد بشق الأنفس فيعدها الخيال إحدى الفرص التي لا تتكرر ولا يجدي معها الندم . واستدعيت بإشارة النادل عم زياد البرلسي ثم سألته :

ـــ هل تعرف الشيخ الذي كان يجلس إلى جانبي ؟

فقطب متذكرا وقال :

ـــ شغلني العمل عن ذلك .

ـــ ولكنك قمت بخدمته وقدمت إليه طلبه ؟

ـــ لعله كان يجلس في مكان ما ثم انتقل إليك بقدحه .

وكان من الممكن أن أعتبر المسألة حالا من أحوال السكر تذهب بذهابه ، ولكن لا جدوى من مخادعة النفس فالأمر أخطر مما يتصور . نفذ السهم إلى مركز اليقين . وما كان في وسعي أن أتحلل من مهمة ألقتها الأقدار على عاتقي فأرضي هانئا بالعودة إلى آفة اللاشيء . وألقيت نظرة على من حولي من السكارى فإذا بهم يسبحون فوق تيار من الهموم المتضاربة ويناقشونها بندا بندا بغير ملل . الأسعار ، التهريب ، الاستيلاء على أراضي الدولة . الثروات غير المشروعة ، سوء المعاملة ، الطوابير ، الديون ، النفوذ الأجنبي ، القذارة ، المجاري ، المذابح ، وغيره مما لا يحيط به حصر ، ولكن لا أحد يتحدث عن مسوخ أو مسوخ المسوخ

أو الوحش . ومتشجعا بحنان الليالى المتابعة سألت :

ـــ هل رأى أحد منكم الشيخ ذا العباءة الأرجوانية ؟

فانطرحت لحظة صمت ثم اندفعت أصوات ضاحكة تغنى :

يا بو العبـاية

لم يبل أحد ريقى وغرقوا فى الضحك والهناء ، فعدت أسأل :

ـــ من المسوخ ؟ ، هل جرى لكم علم بذلك ؟

فماجوا بحركات الضحك الراقصة غير أننى سألت بإصرار :

ـــ ومن يكون الوحش ؟

فصاح أحدهم :

ـــ أخوكم وصل ، فلتحفظنا بركة دعاء الوالدين !

أقلعت عن السؤال . وغادرت الخمارة وأنا أعد نفسى من مواليد تلك الليلة العجيبة . وكلما أقبلت على الخمارة أقبلت على أمل فى أن أرى الشيخ من جديد ولكن دون جدوى . وطيلة نهارى أتساءل عمن يكون المسوخ وعمن يكون الوحش . وكلما مررت بحيوان أو شجرة أو حجر استحوذ على خيالى ولمحت فى صميم جوهره مسخا من بنى آدم يئن ويتعذب . وساءتنى التفرقة فى المعاملة بينى وبين الشاطر حسن ، فبقدر ما أعانه الخضر على أداء مهمته بقدر ما أعرض عنى ، تاركا إياى للكـدح والعذاب . وانتهت بى الحيرة إلى اتخاذ قرار جرىء ، وهو أن أسأل أهل الرأى والخبرة ، مستشهدا بقول القائل « لا خاب من استرشد » . واتجه ذهنى أول ما اتجه نحو السيد« م » وهو من البارزين فى الحزب الوطنى الديمقراطى . توسلت إلى مقابلته بصديق ، ثم عرضت عليه حيرتى ، وسألته :

— من هم المسوخ ، ومن هم مسوخ المسوخ ، ومن هو الوحش ؟

ولم يأخذ من التفكير إلا أقصر وقت ثم قال بثقة :

— عندنا نوعان منهم ، مسوخ من العملاء الملاحدة ، ومسوخ المسوخ هم المخدوعون من أتباعهم ، والوحش في هذه الحال هو الشيوعية أو إن شئت الاتحاد السوفيتي . ومسوخ من التيار الديني المنحرف ، ومسوخ المسوخ هم أتباعهم من المخدوعين . والوحش في هذه الحال بعض الدول مثل إيران وليبيا ..

وتركته شاكرا وبي غصة من خيبة الأمل إذ مهما تكن ثقتي في نفسي ورسالتي فمن أين لي بالقوة التي أقتل بها الاتحاد السوفيتي وإيران وليبيا ؟ . ولكن حيتي لم تفتر فاتجه تفكيري في الحال نحو الأستاذ « ا » المعترف بحكمته في حزب التجمع ، واستقبلني سيادته بلا أدنى صعوبة ، فعرضت عليه حيرتي ثم سألته :

— من هم في رأيك المسوخ ومسوخ المسوخ ومن هو الوحش ؟

فاعتدل في جلسته وابتسم ابتسامة العالم بكل شيء وقال :

— يستوي عندي أن تكون سائلا بريئا أو أن تكون قادما من طرف السيد وزير الداخلية ، ولكن ذلك لن يمنعني من إجابتك طالما أننا نعمل في وضح النهار ، فاعلم أن المسوخ هم عملاء الغرب ، ولا يوجد مسوخ المسوخ لأنه لا أتباع لهم ، وما الملتفون حولهم إلا مجموعة من الانتهازيين تجدهم بأشخاصهم في رحاب كل حكومة ، أما الوحش فهو الإمبريالية العالمية أو إن شئت الولايات المتحدة الأمريكية ..

فأكدت لسيادته أن حيرتي نابعة من ذاتي ولا علاقة لها بالسيد وزير الداخلية ، وشكرت له بيانه ، ثم غادرته موقنا بأن الصعود إلى القمر بلا

تكنولوجيا أيسر على من قتل ذلك الوحش الجديد . ومع ذلك صممت على السير فى طريقى حتى نهايته . تذكرت صديقا قديما انخرط منذ أعوام فى تيار دينى متطرف فقصدته دون تردد . استقبلنى مداريا فتوره إكراما للعهد القديم ولكنه امتنع فى الوقت نفسه عن مصافحتى متمتما :

ـــ معذرة ، لا أصافح كافرا !

وكنت موطنا نفسى على تحمل أى سلوك يجيئنى منه فقبلت عذره . وعرضت عليه حيرتى ثم سألته :

ـــ من هم الممسوخ ؟ ، ومن مسوخ الممسوخ ؟ ، ومن يكون الوحش ؟!

فقال من فوره :

ـــ الممسوخ هم حكام البلاد الإسلامية ورجال الدين بها ، ومسوخ الممسوخ هم جمهرة المسلمين ، وأما الوحش فهو نظام الحكم فى كل مكان ..

وغادرت موضعه مغموسا فى المرارة . خيل إلى أن القضاء على الاتحاد السوفييتى والولايات المتحدة معا أيسر من القضاء على الوحش الجديد ، ولكننى لم أنثن عن مسيرتى . وتذكرت الأستاذ « ن » الذى يمثل فكر الوفد كخير ما يكون التمثيل . واستقبلنى سيادته بحرارة لا توهب عادة إلا للأصدقاء . وعرضت عليه حيرتى ثم سألته :

ـــ من هم الممسوخ ، ومن هم مسوخ الممسوخ ، ومن هو الوحش ؟

فقال باسما فى ثقة تامة :

ـــ الممسوخ هم جميع السياسيين غير الوفديين ، ولا أتباع لهم فى الحقيقة فالبلد وفدى مائة فى المائة ، أما الوحش فهو النظام الدكتاتورى الذى لم

يوفق بعد إلى قناع يخفى به وجهه ..

وتركته شاكرا وأنا أقول لنفسى حقا إن هذا الوحش يبدو أقرب إلى اليد من الوحوش الأخرى ولكن بالقياس إلى قوتى الذاتية يمكن القول بأن « سى أحمد أخو الحاج أحمد » . ولم يبق فى جدولى إلا المثقفون فاخترت الأستاذ « ا » لمنزلته المعترف بها من الجميع . واستقبلنى بحياد فعرضت عليه حيرتى ثم سألته :

ـــ من هم يا أستاذ المسوخ ، ومن هم مسوخ المسوخ ، ومن هو الوحش ؟

فأجابنى بجفاء :

ـــ المسوخ هم الجهلة وتجدهم فى كل موقع لا بقاء لهم إلا بالقوة ، ومسوخ المسوخ أتباعهم وهم أجهل منهم ولكنهم أكبر دهاء وانتهازية ، أما الوحش فهو الجهل ..

وتركته وأنا أتساءل وكيف يمكننى قتل الجهل ؟ . أجل إنى أعتبر الأستاذ « و » خير من يجسد الجهل ولكن هل يزول الجهل بقتله ؟ . ووجدتنى أغوص أكثر وأكثر فى دوامة لا فكاك منها ، حتى ورد على خيالى مسولاى العارف بالله الشيخ « ص » فقصدته من فورى ، واستقبلنى ـــ كالعادة ـــ باسما مرحبا ، ولكنه بادرنى قائلا :

ـــ أعرف ما ساقك إلى اليوم !

فلم أدهش لسابق علمى بقدرته على النفاذ إلى أعماق القلوب . وقال متعنى الله بعمره ونورانيته :

ـــ ما المسوخ إلا عشاق هذه الدنيا الفانية ، ومسوخ المسوخ هم المبهورون بما يملك سادتهم من زخارف زائلة ، أما الوحش فهو النفس

الضالة ..

وعدت إلى بيتى وأنا أقول لنفسى حقا إن هذا الوحش لا يستهان بأمره ، ولكن قتله ممكن ، ولن يعرضنى لقبضة القانون . وأعلنت الحرب ، وأقسمت على الصمود والتصدى مهما طال بى الزمن . ولم أهجر بطبيعة الحال خمارة نجمة الصبح التى عرفت أستاذى العارف بالله فى ركن من أركانها . وفى ذات ليلة وأنا ثمل بنشوتى فى مجلسى المختار انتبهت على وجود صاحب العباءة الأرجوانية إلى جانبى وهو يمزج النبيذ بالليمون . وهتفت :

— يا للسعادة ، لقد جئت أخيرا ..

ولكنه لم يعرنى أدنى اهتمام فقلت :

— لقد عملت بمشورتك ، وها أنا أقاتل الوحش حتى أقتله ..

وأصر على تجاهلى تماما ، ولم يلق على نظرة واحدة ولم تهب على من ناحيته نسمة أنس أو مودة .

وأفرغ قدحه فى فيه ثم نهض متجهما وذهب .

تركنى لحيرة لم تخطر لى فى بال .

البَقَاءُ لِلْأَصْلَحْ

المنة لله ، لا أحمل فى الدنيا هما . مترجم محترم ، ومالك بيت مكون من ثلاثة أدوار وبدروم ، متزوج وموفق وأب لشاب وشابة متزوجين ، وإلى هذا كله فإننى حسن الهضم لهموم الدنيا الصغيرة . فى العصارى — عدا أيام الشتاء — أجلس فى شرفة الدور الأوسط برفقة زوجى والقهوة والفول السودانى واللب الأبيض ، يترامى أمام أعيننا شارع البطريق بحوانيته وجراجه العمومى ، نتفرج على كل من هب ودب . من مجلسنا نرى سكان بيتنا فى الذهاب والإياب ، على كمال ساكن الدور الأعلى وهو محام ونطلق عليه « الأستاذ » ، وصاحب الدور الأول مدكور البقلى ونطلق عليه « الشيخ » رغم أنه أفندى وذلك لإرساله لحيته ، أما البدروم فتقيم فيه ست محسنة رضوان وندعوها « المحمل » لسمانتها . وعلى صغر البيت فكل أسرة مستقلة بذاتها لا تعرف من أصول الجيرة إلا التحية العابرة عند اللقاء النادر . من أجل ذلك انطوت كل أسرة على أسرارها فلا أعرف عن أى منها شيئا يستحق الذكر . غير أننى لاحظت دون جهد كثرة زوار الأستاذ والشيخ أما ست محسنة فكانت تعيش فى عزلة شبه مطلقة . وذات يوم طلب الأستاذ مقابلتى فاستقبلته مرحبا ومداريا قلقى حيال قسماته الحادة ونظرته الثاقبة . اعتذر عن تطفله بأسلوب لبق ثم قال :

ـ حرصا على وقتك سأدخل فى الموضوع مباشرة .

فشجعته بابتسامة فقال :

ـ أنا فى حاجة إلى البدروم والدور الأول وسيعود عليك ذلك بخير وفير !

فقلت وأنا فى غاية الدهشة :

ـ ولكن لكل ساكنه وأنت أدرى بقوانين المساكن !

فقال بثقة :

ـ سيضطرون إلى إخلاء مسكنيهما ولكن يجب أن نتفق قبل ذلك .

فتساءلت فى حيرة :

ـ كيف ؟

فكور قبضته السمراء تحت ذقنه وقال :

ـ ثبت لدى أن مدكور البقلى من الخطرين وأنه جعل من شقته ملتقى لنفر من التيار المتطرف .

فتولانى خوف وقلق وقلت :

ـ لا علم لى بذلك ولا شأن لى به .

ـ طبعا ، سأتكفل بالواجب ، ولكنا علينا أن نتفق أولا ..

ـ وست محسنة رضوان ؟

فضحك ضحكة مقتضبة وقال :

ـ اصح يا نائم ، إنها تنتظر حتى يجثم النوم ثم تستقبل أهل الدعارة !

ففزعت هاتفا :

ـ لا !

ـ هي الحقيقة ، وسوف تلمسها بنفسك ..

ـ إنك مقدم على مغامرة خطيرة !

ـ إني واثق من نفسي تماما .

وشملنا صمت غير قصير ، ولما استرددت أنفاسي سألته :

ـ وماذا تفعل بالشقتين ؟

ـ سأجعل من البدروم مطبعة ومن الدور الأول دارا للنشر ، وسيكون لك عقد مناسب ..

وقلت وأنا أنفخ :

ـ تلزمني مهلة للتفكير والتشاور مع الهانم .

فقام وهو يقول :

ـ طبعا ، ولكن ليكن الموضوع سرا بيننا .

وأفضيت بهمي كله إلى زوجي فقلبت الأمر على وجوهه ثم انتهت إلى أنه إذا صح ما يدعيه الأستاذ ونجح تدبيره فسوف يتطهر البيت ويضاعف الدخل ، وما علينا من بأس طالما أنه لن يورطنا فيما لا نحب . ولكن قبل أن يتم اللقاء مع الأستاذ طلب الشيخ مدكور البقلي مقابلتي . توقعت من فوري مزيدا من الارتباك والهواجس ، وخيل إلى أنه شعر بطريقة ما بما يدور حوله فبادر للعمل . وتقابلنا فاعتذر عن إزعاجي وقال :

ـ يقتضيني ديني أن أصارحك بالحق الذي علمته ، فقد ثبت عندي أن الدور الأعلى ما هو إلا خلية هدامة ، وأن البدروم بؤرة فسق ، وسأقوم بما

يفرضه على دينى وضميرى ..

انهالت على كلماته كطلقات الرصاص فغرقت فى دوامة صاخبة وتمتمت :

ـــ أى فظاعة لم تجر لى فى بال !

ـــ إنك رجل طيب وحسن الظن بالناس، وسيكون خلاص بيتك على يدى إن شاء الله، وفى مقابل ذلك أرجو أن توافق على تأجير الشقتين لى!

فتساءلت بذهول :

ـــ ما حاجتك إليهما ؟

ـــ سأجعل من البدروم مطبعة ومن الشقة دار نشر وعلى أن يتم الاتفاق بيننا على ذلك .

فقلت وأنا أغوص أكثر وأكثر فى الدهشة والارتباك :

ـــ أعطنى مهلة للتفكير .

فقام وهو يقول :

ـــ لك هذا يا أخى فى الإسلام ، وليكن الأمر سرا بيننا ، ولكن تذكر أن خير البر عاجله ..

ولما علمت زوجى بما دار بيننا برد حماسها الأول ، وبدا لها الأمر أشد تعقدا وخطورة فخافت التورط فيما لا تحمد عقباه ، وتفكرت مليا ثم انتهت إلى رأى فقالت :

ـــ علينا أن نمتنع عن أى اتفاق ثم ننتظر .

فارتحت إلى رأيها ، وعزمت على مصارحة الرجلين بأنه لا شأن لنا

بالموضوع . ولا اتفاق نرتبط به قبل أن ينجلي الموقف . و لم تكد تمضي ساعات على ذهاب الشيخ حتى رن جرس الشقة ، وإذا بست محسنة رضوان تطالعني بجسمها المترامي ، في فستان بني محتشم ، معتمرة بخمار أبيض . تمتمت :

ـــ دستوركم .

ثم مضت نحو حجرة الاستقبال تتبختر كالتختروان وجلست وهي تقول :

ـــ أود الاجتماع بك والست حرمك .

وقد كان . وفي أثناء الجلسة استرقت النظر مستطلعا فبدت لي غير ما تبدو من بعيد ، لا لحسنها ونضجها الأنثوي فحسب ، ولكن لتلك النظرة التي لا يخفيها التصنع ،نظرة مليئة بالخبرة والمجون فقلت لنفسي إنها ولا شك كما يقال عنها . وقالت المرأة بنبرة جريئة وناعمة :

ـــ كان يجب أن نتعارف من قبل كما يليق بامرأة وحيدة مثلي . ولكني شعرت بأنكما تؤثران العزلة ..

ثم مغيرة درجة صوتها إلى مقام أدنى مشحون باهتمام أكثر :

ـــ ما علينا ، ها هي الضرورة تسوقني إليكم ، وتدعونا جميعا للدفاع عن النفس !

فأقبلت زوجي نحوها بتركيز أكثر قائلة :

ـــ خيرا ؟

ـــ يصدق على بيتنا المثل القائل يا ما تحت الساهي دواهي ، وبفضل من

سهرى المعتاد وراء الشيش المغلق عرفت أشياء وأشياء ..

وتساءلت أعيننا دون أن تنبس شفاهنا فواصلت المرأة :

ــ تبين لى أن الدور الأعلى وكر هدامين وأن الدور الأول وكر منحرفين ، رأيت بعينى وسمعت بأذنى ، وأخوف ما أخاف أن يكون المسكنان قد تحولا إلى مخزنين للذخيرة ، وأن نكون عرضة للهلاك ونحن لا ندرى !

فاستعاذت زوجى بالله بصوت متهدج فقالت ست محسنة :

ــ اطمئنى فإنى أعرف كيف أدافع عن نفسى ، وعن الناس الطيبين ، غير أنه لى رجاء هو أن أستأجر شقتيهما بعد خلوهما !

فتسرعت زوجى قائلة :

ــ لك هذا يا ست محسنة .

أما أنا فسألتها :

ــ وما حاجتك إليهما ؟

فقالت باسمة كاشفة عن سنتين ذهبيتين لأول مرة :

ــ بصراحة سأجعل الدور الأول كافتيريا والآخر مطعما على أحدث طراز ، وسيدر العقد الجديد عليكم أكثر مما تدر عمارة ، ولذلك يجب أن يتم بيننا اتفاق مبدئى !

ومن منطلق تجربتى السابقة بالموقف نفسه قلت :

ــ تلزمنا مهلة للتفكير .

ــ صدقنى لا ضرورة لذلك ، سيتم كل شىء بأسرع مما تتصور !

فتمتمت :

ـــ مهلة قصيرة ..

ـــ أمرك ، ولا تنس صاحبة الفضل فى تخليصك من شر مؤكد .

ثم وهى تمضى فى سبيلها :

ـــ يكفينى كلمة شرف !

فقالت زوجى بحرارة :

ـــ كلمة شرف لا رجوع عنها !

وحقا تتابعت الأحداث بأسرع مما تصورنا . فى تلك الليلة اقتحم رجال الأمن الشقتين ، وسمعنا أنهم عثروا على أدلة بينة ، وختمت الشقتان بالشمع الأحمر . ولما زايلنا الذهول والانفعال قلت لزوجى :

ـــ ستطالبنا بإتمام الاتفاق .

فقالت بثقة :

ـــ إنها صفقة رابحة ولعله من الأوفق أن ننتقل نحن إلى الدور الأعلى بعيدا عن الضجة :

فقلت بقلق :

ـــ ولكنى أرجح أن ما قيل عنها حق وصدق .

ـــ لو صح ذلك لقبض عليها أيضا !

ـــ لها عينان فاجرتان ..

ـــ إنها بالنسبة إلى صاحبة فضل ولسنا المسئولين عن الأخلاق فى البلد .

وكان للمرأة ما أرادت . وتحول بيتنا إلى كافيتريا ومطعم على أحدث

طراز . فى بادئ الأمر ساورنى شك فى نجاح المشروع لبعد مكانه عن وسط المدينة ، ولكن سرعان ما أذهلنى نجاحه ، وإقبال السيارات الفارهة عليه حاملة أناسا ما كان يخطر ببال أنهم سيشرفون بيتى المتواضع بحال من الأحوال .

المنة لله ، لا أحمل فى الدنيا هما.

الفأر النرويجي

من حسن الحظ ألا نكون وحدنا فى هذه المحنة . وقد دعانا السيد (أ . م) بوصفه أقدم ملاك الشقق فى العمارة إلى اجتماع فى شقته لتبادل الرأى . لم يزد عدد الحاضرين عن عشرة بما فيهم الداعى السيد (ا . م) وهو فضلاً عن أقدميته أوسعنا ثراء وأرفعنا مركزا . ولم يتخلف أحد ،كيف يتخلف والمسألة تتعلق بالفئران وغزوها المحتمل لبيوتنا وتهديدها لأمننا وسلامتنا . ويبدأ الداعى بصوت ملؤه الجدية « تعلمون ... » ثم يسرد ما تردده الصحف عن زحف الفئران وأعدادها الهائلة وتخريبها البشع . وترتفع أصوات من أركان الحجرة :

ــ ما يقال يفوق الخيال .

ــ هل رأيتم الريبورتاج التلفزيونى ؟

ــ ليست فئرانا عادية ولكنها تهاجم القطط والآدميين .

ــ ألا يحتمل أن يوجد شىء من المبالغة فى الموضوع ؟

ــ لا ..لا ، الواقع أكبر من أى مبالغة .

ثم يقول السيد (ا . م) بهدوء واعتزاز برياسته :

ــ على أى حال ثبت أننا لسنا وحدنا ، هذا ما أكده لى السيد المحافظ .

ــ جميل أن نسمع ذلك .

ــ فما علينا إلا أن ننفذ التعليمات بدقة ، ما يجىء منها عنى مباشرة أو

ما يجيء عن طريق السلطة ..

وخطر لأحدنا أن يسأل :

— هل يكبدنا ذلك تكاليف باهظة ؟

فلجأ إلى الدين قائلا :

— الله لا يكلف نفسا إلا وسعها .

— المهم ألا تكون مرهقة .

فلجأ إلى الحكمة قائلا :

— لا يدفع الشر بما هو شر منه !

وعند ذاك قال أكثر من صوت :

— ستجدنا إن شاء الله من المتعاونين .

فقال السيد (ا . م) :

— نحن معكم ولكن لا تعتمدوا علينا كل الاعتماد ، اعتمدوا أيضا على أنفسكم ابدءوا على الأقل بالبديهيات .

— عين العقل والصواب ولكن ما البديهيات ؟

— اقتناء المصايد والسموم التقليدية .

— عظيم .

— الإكثار ما أمكن من القطط فى بئر السلم وفوق السطح وفى الشقق أيضا إذا سمحت الظروف .

— لكن يقال إن الفأر النرويجى يهاجم القطط ؟

— لن يخلو القط من فائدة .

ورجعنا إلى مساكننا بروح عالية وعزيمة صادقة . وسرعان ما غلب

التفكير فى الفئران على سائر همومنا . فكثر ورودها علينا فى أحلامنا وشغلت أوسع مساحة فى حوارنا ، وتصدت لنا باعتبارها المشكلة الأولى فى وجودنا . ومضينا ننفذ ما تعهدنا به ، ولبثنا ننتظر مجىء العدو . يقول بعضنا إنه لم يبق من الزمن إلا أقله ، ويقول آخرون سنلمح ذات يوم فأرا يمرق فيكون النذير بأن الخطر قد دهم . وتضاربت التفسيرات حول تكاثر الفئران . هو فى رأى نتيجة لخلو مدن القنال حين الهجرة،وفى رأى يرجع إلى سلبيات السد العالى ، ورأى يحيله إلى نظام الحكم ، وكثرة ترى فيه غضبا من الله على عباده لتنكرهم لهداه . وبذلنا جهدا مشكـورا للاستعداد الرشيد لم يتهاون فيه أحد . وفى اجتماع تال بمسكن السيد الفاضل (ا . م) قال حفظه الله :

ـــ سرنى ما اتخذتم من أسباب الوقاية ، وأسعدنى أن أرى مدخل عمارتنا وهو يموج بالقطط ، أجل إن البعض شكا إلى تكاليف تغذيتها ولكن كل شىء يهون فى سبيل الأمن والأمان ..

وقلب عينيه فى وجوهنا بارتياح ثم تساءل :

ـــ ترى ما أخبار المصايد ؟

فأجاب أحدنا وهو مرب فاضل :

ـــ سقط عندى فأر هزيل من فئراننا الوطنية .

ـــ أيا تكن هوية الفأر فهو مؤذ ، أما اليوم فيهمنى أن أبلغكم بوجوب المزيد من الحيطة بعد أن أصبح العدو على الأبواب ، وسوف توزع علينا كميات من السم الجديد المطحون فى الذرة ، يوضع فى الأماكن الحساسة مثل المطبخ مع الحذر الشديد لحماية الأطفال والدواجن والحيوانات

المستأنسة ..

وحصل فعلا ما وعد به الرجل ، وقلنا حقا لسنا وحدنا فى المعركة ، وتدفق منا الثناء على جارنا الهمام ، ومحافظناالجليل . أجل حملنا ذلك الكثير من الانتباه يضاف إلى همومنا اليومية . كذلك وقعت أخطاء لا مفر منها ، فقتلت قطة فى إحدى الشقق ، وعدد من الدجاج فى شقة أخرى . ولكن لم تحدث خسائر فى أرواح البشر . وكلما مضى وقت اشتد توتر أعصابنا ويقظتنا وثقل على قلوبنا هم الانتظار فقلنا وقوع البلاء ولا انتظاره . ويقابلنى جار ذات يوم فى محطة الباص فيقول لى :

— سمعت من ثقة أن الفئران أهلكت قرية وزمامها كله .

— لا أثر لهذا الخبر فى الجرائد !

فحدجنى بنظرة ساخرة و لم ينبس . وتخيلت الأرض سائلة بحشود من الفئران لا أول لها ولا آخر ، وجموعا من المهاجرين تهيم على وجهها فى الصحراء ، أيمكن أن يقع هذا يا ربى ؟ ! . ولكن ما وجه الاستحالة فى ذلك ؟ . ألم يرسل الله من قبل الطوفان والطير الأبابيل ؟ . هل يكف الناس غدا عن كفاحهم اليومى ليرموا بما يملكون فى أتون المعركة ؟ . وهل ينتصرون أو تكون النهاية ؟

وفى الاجتماع الثالث بدا السيد (ا . م) منشرحا وراح يقول :

— تهانى ياسادة ، النشاط متقد على أكمل وجه والخسائر ضئيلة لا تذكر ولن تتكرر بإذن الله ، وسوف نصبح من أهل الخبرة فى مقاومة الفئران ،وربما استعانوا بنا فى المستقبل فى أماكن أخرى ، والسيدالمحافظ فى غاية من السعادة ..

وأراد أحدنا أن يشكو قائلا :

ـ الحق أن أعصابنا ..

ولكن السيد (ا . م) قاطعه :

ـ أعصابنا ؟ ! .. لا تفسد نجاحنا بكلمة طائشة !

ـ متى يبدأ الهجوم الفأرى ؟

ـ لا أحد يستطيع أن يقطع برأى ، ولا أهمية لذلك طالما أننا مستعدون للمعركة ..

ثم واصل بعد فينة صمت :

ـ التعليمات الجديدة ذات خطورة خاصة وهى تتعلق بالنوافذ والأبواب وأى ثقب فى جدار أو غيره . أغلقوا النوافذ والأبواب ، افحصوا حافة الباب السفلية بصفة خاصة ،فإن وجد زيق تنفذ منه قشة أقيموا وراءه عوارض خشبية لتسده بالكامل ، وعند التنظيف صباحا يبدأ بحجرة فتفتح نوافذها ، يكنس فرد ويقف آخر مسلحا بعصا للمراقبة ثم تغلق النوافذ وينتقل إلى حجرة تالية بنفس الأسلوب ، وبانتهاء التنظيف تكون الشقة علبة محكمة الإغلاق أيا كان المناخ ..

وتبادلنا النظرات فى وجوم وقال صوت :

ـ من المتعذر الاستمرار فى ذلك .

فقال الرجل بوضوح :

ـ بل عليكم أن تلتزموا بالدقة البالغة فى التنفيذ ..

ـ حتى فى الزنزانة توجد ..

وسرعان ما قاطعه بحدة :

— نحن فى حرب ، أى فى حال طوارئ ، وليس الخراب فقط ما يهددنا ولكن الأوبئة أيضا والعياذ بالله يجب أن نحسب حسابها !

ومضينا ننفذ ما أمرنا به صاغرين . وغصنا أكثر فى مستنقع الترقب والحذر وما يصحبه من ضيق وملل . واشتد توتر الأعصاب فترجم إلى منازعات حادة يومية بين رب البيت وربتها والأبناء . ورحنا نتابع الأنباء فصار الفأر النرويجى بجسمه الضخم وشاربه الطويل ونظرته المنذرة الزجاجية نجما من نجوم الشر يجول فى أخيلتنا وأحلامنا ، ويستقطب جل أحاديثنا . وفى آخر اجتماع قال السيد (ا . م) :

— بشرى ، خصصت فرقة من أهل الخبرة لتفقد العمائر والشقق والمحال المعرضة للخطر ، وذلك دون المطالبة بأية رسوم إضافية ..

وكان خبرا سارا استقبلناه بارتياح عام ، وأملنا أن نزيح عن صدورنا بعض العناء الذى تعانيه . وذات يوم أخبرنا البواب أن المندوب تفقد مدخل العمارة وبئر السلم والسطح والجراج فبارك جماعات القطط المنتشرة هنا وهناك ، ونبه عليه بالمزيد من اليقظة والإبلاغ عن أى فأر يظهر ، نرويجيا كان أو مصريا . وعقب انقضاء أسبوع واحد على الاجتماع دق جرس الشقة وإذا بالبواب يبشرنا بقدوم المندوب مستأذنا فى التفتيش . لم يكن الوقت مناسبا إذ كانت زوجى قد فرغت لتوها من إعداد الغداء غير أننى هرعت إلى الخارج لأرحب بالقادم . وجدتنى أمام رجل متوسط العمر مكتنز الجسم ذى شارب غليظ يذكر وجهه المربع بوجه قط بأنفه القصير المطموس ونظرته الزجاجية . رحبت به مداريا ابتسامة كادت تنقلب إلى ضحكة ، وقلت لنفسى حقا إنهم يحسنون الاختيار .

وسرت بين يديه ومضى يتفقد المصائد والسموم والنوافذ والأبواب ويهز رأسه بارتياح . غير أنه رأى فى المطبخ نافذة صغيرة مصفحة بغشاء سلكى ذى ثقوب بالغة الصغر فقال بحزم :

ـــ أغلقوا النافذة .

وهمت زوجى بالاحتجاج ولكنه بادرها قائلا :

ـــ الفأر النرويجى يقرض السلك !

ولما اطمأن إلى نفاذ أمره راح يتشمم رائحة الطعام معلنا استحسانه فقلت له :

ـــ تفضل .

فقال ببساطة :

ـــ لا يأبى الكرامة إلا لئيم !

وفى الحال أعددنا له مائدة وحده زاعمين له أننا سبقناه . وجلس إلى المائدة وكأنما يجلس فى بيته ، وجعل يلتهم الطعام بلا حرج ولا حياء وبنهم عجيب . ومن باب الذوق غادرناه وحده . غير أننى رأيت بعد حين أن أطوف به لعله فى حاجة إلى شىء . وفعلا جددت له طبقا ، وفى أثناء ذلك لاحظت تغيرا مثيرا فى منظره شد إليه عينى بقوة وذهول . خيل إلى أن هيئة وجهه لم تعد تذكر بالقط ،ولكنها تذكر بالفأر ، بل الفأر النرويجى نفسه . ورجعت إلى زوجى رأسى يدور ، لم أصرح لها بما رأيت ولكننى طالبتها بأن تشجعه وترحب به ، فغابت دقيقة أو دقيقتين ثم رجعت شاحبة اللون وحملقت فى وجهى ذاهلة ، ثم تمتمت :

ـــ أرأيت شكله وهو يأكل ؟

فأحنيت رأسي بالإيجاب فهمست :

— إنه لأمر مذهل يعز على التصديق .

فوافقتها على رأيها بهزة من رأسي الدائر . ويبدو أن إغراقنا في الذهول أنسانا مرور الوقت فانتبهنا مع صوته آتيا من الصالة وهو يقول بمرح :

— عامرا !

فاندفعنا نحوه ولكنه كان قد سبقنا إلى الباب الخارجي وذهب . لم نلمح منه إلا ظهره المترجرج ، ثم التفاتة سريعة ودعتنا بابتسامة نرويجية خاطفة . ووقفنا وراء الباب المغلق نتبادل نظرات حائرة .

قاتلِ قدیم

صدرت « يوميات علاء الدين القاهرى » فاقتحمت عزلة شيخوختى ، عاصفة بهدوئها وانقطاعها عن الحياة العامة . عاد اسمه يطاردنى وينكأ جرحا فى كبريائى . ويذكرنى بفترة الاحترام والتقدير ، وعهد النفور والرفض ، وأخيرا الفشل . وأقتنى الكتاب ، وأنهمك فى قراءته ، بدءا من مقدمة ابن أخيه ، فأقف على سر تأخير النشر ربع قرن عقب مصرع الرجل احتراما لوصيته ، وأغوص بين السطور لعلى أعثر على حل اللغز الذى حيرنى ، وينبثق من إحدى اليوميات بصيص نور فأمتلىء بالاستنارة وأنتفض من الذهول ، وأهتف فى حجرتى المغلقة :

ـــ كان القاتل بين يدى طوال الوقت !

واخترقت الضباب إلى حجرتى فى نقطة الشرطة فرأيت رجلا يندفع داخلا مضطربا شاحب الوجه بجسمه الطويل المفتول ويقول لاهثا :

ـــ الأستاذ قتيل فى فراشه .

وتفحصته بعين محترفة متسائلا عمن يعنى فقال :

ـــ الأستاذ علاء الدين القاهرى .

فأشغل اهتمامى ، وأدركت فى الحال أن الروتين سينحرف عن مجراه المألوف .

ـــ أنا خادمه ، ذهبت إلى بيته صباحا كالعادة ، رأيت باب حجرة نومه مفتوحا فألقيت نظرة فرأيته فى فراشه غارقا فى دمه .

واستجابة لاستفسار قال :

ـــ أغادر بيته ليلا وأعود إليه فى الصباح فأفتح الباب بمفتاح ، أما المفتاح الآخر ففى حوزة الأستاذ ..

لم أضيع وقتا أكثر من ذلك فأبلغت المأمور وذهبت إلى بيت الأستاذ بصحبة قوة من الجنود والمخبرين . وفى الطريق غمرتنى ذكريات . ذكرت حماسى لفكره أيام الدراسة الذى زحف عليه الفتور فيما بعد وختم بالرفض . كان أستاذا جامعيا مرموقا ، ومؤلف كتب تعتبر المرجع الأول فى الدعوة للحضارة الغربية والنقد المر للتراث ، فحظيت بقلة من المعجبين وكثرة من الناقمين . وجرى الزمن وتغير ، فبلغ سن المعاش ، واعتزل فى بيته . واقتصر اتصاله بالناس على استقبال بعض الزملاء ممن على شاكلته فى الرأى ، وبعض الشباب من المعجبين . وعانى الجو العام من اختناق فى الفكر على المستويين الرسمى والشعبى فلم يعد طبع كتبه ، ولم يتيسر الاطلاع عليها إلا فى دار الكتب وخاصة لأصحاب الرسائل الجامعية . رغم ذلك كله بقى اسمه حقيقة ثقافية ذات وزن ثقيل فى الجيل المخضرم وقلة من الشباب ، فلم تغب عنى خطورة الجريمة وأثرها المنتظر .

ودرست موقع البيت من الخارج وسط صف من بيوت مماثلة شيدتها جمعية تعاونية . بيت صغير أنيق أبيض من دور واحد وحديقة صغيرة تعبق برائحة الياسمين . ورأيت الجثة منكفئة على وجهها ، والغطاء منحسر عن نصفها الأعلى ، والدم يغطى مؤخر الرأس والقفا وينداح فوق الحشية والوسادة . غلفه وجه الموت الأخرس المغترب . بهتت صلعته ، وتمدد أنفه الكبير الأقنى فى صفحة ضاربة للزرقة غائصة فى اللامبالاة . لا أثر للمقاومة ثمة ، وكل قطعة أثاث مستقرة فى موضعها فى طمأنينة تامة ، وفى الحال لحق بى المأمور ومدير الأمن والنائب العمومى ، وجرى فحص شامل للمسكن ومحتوياته . وبهرنا نظامه الدقيق وترتيبه الحسن فلا يشذ

شيء عن موضعه . عدا صينية على خوان فى حجرة الاستقبال تحوى عددا من أقداح الشاى فى قراراتها شيء من السائل ، ووعاء معدنى مفضض به بقايا من البسكوت المطعم بالشيكولاطة ، ونافضة مليئة بأعقاب السجائر . وصوان الملابس لم يمس ، والساعة والولاعة ، كما عثرنا على مظروف به مائة جنيه . وتبودل حديث أولى بين المسئولين :

— الجريمة لم ترتكب من أجل السرقة .

— احتمال راجح ولكن يقتضى مزيدا من التحرى .

— هناك باب الخصومة والانتقام .

— هل تدخل فى هذا الباب الخصومة الفكرية ؟

— لكن الأجيال الجديدة لا تكاد تعرفه — وإن وجب أن يمتد البحث لكل شيء ..

— والعلاقات الخاصة المجهولة أيضا .

وعرفت القنوات التى ستتدفق منها التحريات ، ثم بدأ التحقيق باستجواب الخادم عم عيده مواهب . رجل فى الخمسين ، يعمل طاهيا وشغالا عند الأستاذ منذ عشرين عاما، وهو محور البيت كما يخلق ببيت أعزب يعيش وحده. ينتهى عمله عقب تقديم العشاء فى الثامنة ثم يغادر البيت حوالى التاسعة يمضى إلى مسكنه بمصر القديمة ثم يرجع فى الصباح قبل استيقاظ الأستاذ عادة. ويخالف هذا النظام فى الليالى التى يستقبل فيها الأستاذ جماعة من أقرانه أو مريديه من الشبان. فربما تأخر ميعاد ذهابه إلى منتصف الليل. وبالنسبة لليوم الذى قتل الأستاذ فى ليلته عقد الأستاذ جلسة مع أربعة من الشبان ممن يترددون كثيرا عليه، وهم طلبة دراسات عليا،

معروفون جيدا بالاسم والصورة لدى عم عبده مواهب . غير أن عم عبده شعر بصداع فاستأذن فى الانصراف حوالى العاشرة ، ولما رجع صباحا كالعادة اكتشف الجريمة .

— هل تشك فى أحد الزوار الأربعة ؟

— أبدا .. (ثم بتوكيد) أبدا .. أبدا ..

— لماذا ؟

— كانوا يحبونه وكان يعاملهم بعطف الوالد ورعاية الأستاذ ، والعلم عند الله ، والكلمة الأخيرة لك ..

وقلت لنفسى ، أمامنا جريمة قتل ، القاتل كان فى داخل البيت ، وجدنا مفتاح البيت الخاص بالأستاذ فى درج المكتب . وجدنا باب البيت ونوافذه سليمة وكانت النوافذ مغلقة من الداخل . وكخطوة أولى حجزت عم عبده والطلبة الأربعة وانطلقنا فى قنوات التحريات .

بحثنا مصادر الثروة فوضح لنا أنه لا يملك إلا معاشه وحسابه فى المصرف المتحصل من فوائد شهادات الاستثمار ، وليس فى ميزانه الصرفى ما يدل على أنه سحب مبلغا أكثر من المعتاد صرفه كل شهر لتغطية نفقاته . ولم تدلنا التحريات عن الطلبة وعم عبده مواهب على أى علاقة مريبة أو شبهة من الشبهات ، وفتشت البيوت تفتيشا دقيقا ، وكان عم عبده يعيش فى مسكن صغير هو وزوجه أما أبناؤه الثلاثة فيعملون فى السعودية ، ولما سئلت زوجته عن ميعاد عودته ليلة الحادث أجابت بأنها تنام مبكرة ووضح أنه لا فكرة لها دقيقة عن الوقت . وكان بعطفة السد القائم بها مسكنه مقهى عند المنعطف شهد صاحبه بأن عم عبده غشى المقهى ليلتها

كعادته فلم يتناقض ذلك مع أقوال الرجل الذى قال إنه قصد المقهى ليعالج صداعه بالقهوة والأينسون وخلافه ، أما عن الوقت فلم يستطع الرجل أن يحدده لانشغاله المتواصل بعمله . وضحت لنا براءة الطلبة فلم يبق فى يدى إلا عم عبده مواهب . هو الذى يمكنه دخول البيت فى أى وقت ودون عائق ثم يغادره بسلام ، ولكن لماذا يقتل الأستاذ ؟ . والحق ـــ وأقرر ذلك من واقع خبرة ودراسة ـــ أنه رجل ورع طيب مستقيم ، وبعيد أن يكون حزنه على الأستاذ تمثيلا أو زائفا ، وبعيد أيضا أن يوحى وجهه بالجريمة أو الشر ، وغضبت حيال الغموض الجاثم . وتعلق الأمل بالعلاقات الخاصة الخفية . وقلت لعم عبده مواهب :

ـــ حدثنى عن سلوك المرحوم كرجل لم يتزوج قط ؟

فأجاب متجهما :

ـــ لا أعرف شيئا .

ـــ تكلم . ألا تريد أن تبرئ نفسك ؟

ـــ لى الله ، لن يأخذنى بجريمة غيرى .

ـــ لكل منا هفواته وعيوبه فحذار أن تدافع عن القاتل بحسن نية !

ولكنه أصر على موقفه . وجاءنى مرشد باللبّان الذى شهد بأنه رأى فى بيت الأستاذ فى أثناء تردده عليه امرأة متوسطة العمر على جمال ملحوظ .

وبعد مواجهة بين اللبان وعم عبده قلت للأخير بحزم :

ـــ هات ما عندك عن هذه المرأة .

فقال بقلق :

— ربنا أمر بالستر .

فقلت بحزم أشد :

— وأمر بعقاب القاتل.فتكلم لتخلص نفسك من الشبهة المحيقة بك .

فاعترف قائلا :

— هي أرملة على علاقة قديمة بالأستاذ ، تعيش فى أسرة فقيرة ولكنها لا تتسامح فيما يمس العرض ، ولو انكشف سرها لتعرضت للهلاك ..

ووعدته بأن نستدرجها إلى التحقيق فى تكتم . وعرفت ما يلزمنى عن المرأة ، مسكنها ، أولادها ، أخيها الميكانيكى المعروف بفظاظته ، وعرفت أيضا أن عم عبده كان يسفر أحيانا بين الأستاذ والمرأة على كره شديد منه .

داخلنى شعور بأن الحقيقة ستقذف إلى بعد تمنعها العسير . ولما رأيت المرأة فتر حماسى . وجدت امرأة تكاد من سذاجتها أن تشارف البلاهة .

وصارحتنى بأنها استسلمت للرجل لشدة حاجتها ولعطفه وكرم أخلاقه ، وأن موته سد فى وجهها باب الرجاء . وقالت إنها كانت تزوره نهارا تجنبا لإثارة الشبهة عند أحد وخاصة أخيها ، وأنها لم تدخل بيته طوال الأسبوعين السابقين للحادث مستشهدة فى ذلك بعم عبده مواهب .

ورجع الغموض إلى ما كان وربما أشد . ونشط خيالى فى طرح الفروض ، فحام حول أخيها الميكانيكى ولكن قطع الشك باليقين عندما أثبتت التحريات بأن الشاب كان محبوسا فى قسم الخليفة يوم الجريمة لتورطه فى مشاجرة . انتهى . لم يسفر التحقيق ولا التحريات عن شىء ، وقيدت الجريمة ضد مجهول . وقلت لنفسى وأنا من القهر فى نهاية :

— هذه الأمور تحدث أيضا !

— ها أنا أعود إلى الجريمة بعد انقضاء خمسة وعشرين عاما على ارتكابها ، وبعد أن تركت الخدمة منذ خمسة أعوام أو يزيد . أعادنى إليها نشر « يوميات علاء الدين القاهرى » . ورحت أقرأ بشغف مدركا الأسباب التى جعلت الأستاذ يوصي بتأخير النشر ربع قرن لتعرضها لأشخاص رأى من المستحسن ألا يهتك الستر عن أفكارهم إلا بعد وفاتهم أو فى الأقل بعد انتهاء خدمتهم الرسمية . وفى إحدى اليوميات قرأت :

« عم عبده مواهب صارحنى برغبته فى ترك خدمتى فانزعجت جدا لشدة حاجتى إليه خاصة فى هذه المرحلة الحرجة من العمر والوحدة ، ولأمانته واستقامته وطيبة قلبه وتقواه . وقلت له :

— إنى أعاملك كصديق يا عم عبده .

فتمتم :

— لا ينكر النعمة إلا لئيم .

— إذن لا تتركنى ، والعمل على أى حال أفضل من الفراغ .

فغمغم :

— لا حيلة لى يا سيدى .

— بل يوجد سبب ، لا تخف عنى شيئا ..

فصمت مليا ثم قال :

— قلبى يقشعر مما أسمع أحيانا فى مجالس الزوار !

فقلت بدهشة :

— لن يأخذك الله بذنوب غيرك ، لك على أن أسكت الحوار إذا دخلت الحجرة لخدمة ..

وما زلت به حتى عدل عن رأيه . ولكن يبدو أنه لم يكف عن التصنت وقد ضبطته مرة لصق الباب وأنا ذاهب لبعض شأنى فعاتبته عتابا مرا ، وذات يوم وهو يقوم على خدمة إفطارى حانت منى التفاتة إلى مرآة فلمحت صورته المعكوسة تنطق بالحنق والغضب ، فاعترضتنى كآبة وتساءلت كيف أحتفظ برجل يضمر لى هذا الشعور الأسود ؟ ! » .

وفى مكان آخر من اليوميات وكظرف مشابه قرأت هذه العبارة عن عم عبده مواهب « يجب التخلص منه فى أقرب فرصة ، وقد ناقشت مشكلته فى إحدى الجلسات الثقافية فأثنى الزوار عليه وقالوا إنه مثل للاستقامة والطيبة ولكنى على خبرة بما يمكن أن يصدر عن هذه الأنماط إذا جرحت ضمائرها ، يجب التخلص منه فى أقرب فرصة مهما صادفنى من صعوبات فى إحلال آخر محله » .

امتلأت بالاستنارة متأخرا جدا وهتفت :

— كان القاتل بين يدى طوال الوقت !

الآن قد سقطت العقوبة ، واندثر التحقيق ، وتوفى الكبار الذين باشروا التحقيق أو أشرفوا عليه ، ولعل القاتل قد لحق بهم أو سبقهم إلى جوار ربه . وأمكننى أخيرا أن أقف على الباعث على الجريمة الذى ضللته وقتها ، ترى هل مات الرجل أو ما زال حيا ؟ . ولم أستطع مقاومة الرغبة فى السعى وراءه رغم إفلاته القانونى من العقوبة . تمنيت أن أعثر عليه ولو

لأعلن انتصارى العقيم . ولن يتضح عقمه — لجهله غالبا بالقانون — حتى أكاشفه بذلك .

وانتقلت من مصر الجديدة إلى مصر القديمة مدفوعا بحب استطلاع ورغبة متوارية فى الانتقام . وجدت عطفة السد كما كانت ببيوتها العتيقة والمقهى القائم عند المنعطف لم يكد يتغير إلا وجه صاحبه . وكان عم عبده انقطع عن زيارة المقهى منذ سنوات فطرقت بابه واقتحمت مسكنه .. استقبلنى بدهشة ، ببصر ضعيف ، ولم يتذكرنى ، وطالعنى بوجه كثير الغضون وسوالف ناصعة البياض كالزغب تبرز من حافة طاقية بيضاء . قلت له :

— إنك لا تتذكرنى .

فبسط راحته متسائلا فقلت :

— ولكنك لم تنس ولا شك مصرع الأستاذ علاء الدين القاهرى !

فومضت فى سحابة عينه نقطة لامعة وقطب فى حذر .

— أنا ضابط التحقيق ، كلانا تقدم به العمر .

فتحركت شفتاه من همس لم أتبينه ولكنى قرأت فى صفحته أمارات الانسحاق .

وقلت بثقة :

— أخيرا انكشفت الحقيقة وثبت أنك قاتله !

واتسعت عيناه فى ذهول ولكنه خرس فلم ينبس. وقام بجهد وصعوبة ولكنه ما لبث أن انحط فوق الكنبة. أسند رأسه إلى الجدار ومد ساقيه وتقلصت عضلات وجهه نافثة زرقة ترابية ، وفتح فاه ، ربما ليقول شيئا

لم يقله أبدا ، ثم استسلم أمام قوة مجهولة فمال رأسه على كتفه .

وجزعت فهتفت به :

— لا تخف . انقضى زمان الجريمة ، اعتبر حديثى مزاحا ..

ولكنه كان قد أسلم الروح .

* * *

أقدمت على مغامرة لأحقق نصرا عقيما فبؤت بهزيمة جديدة أفقدتنى ما كنت أحظى به من راحة البال . ومن حين لآخر أتساءل فى ضيق :

— ألا أعتبر أنا أيضا قاتلا ؟!


الخَنْدَق

رغم عنايتى الملحوظة بنظافة جسدى وصحتى العامة فإن الإحساس بالقذارة والمرض يلح على كفكرة ثابتة أو جو ثقيل جاثم . لست أقيم فى جسد وأطراف فحسب ولكن أيضا فى شقة عتيقة بالية وعطفة هرمة تغوص فى النفايات . تعرى السقف من الطلاء وتكشف فى مواضع عن عروق لا لون لها ، وتشققت الجدران فى خطوط متوازية ومتقاطعة ، وانفجرت الأرضية عن نتوءات وثغرات تلاطم باطن القدم تحت الأكلمة المتهرئة . والسقف والجدران تنضح صيفا بالحرارة المحرقة وترشح شتاء بالرطوبة أو برشاش المطر . والسلم آخذ فى التآكل ، ودرجة منه تصدعت فتهاوى نصفها وأصبحت عثرة فى طريق الصاعد والهابط وخطرا لا يستهان به فى ظلمة الليل . هذا بالإضافة إلى الشق الطولى الذى يسوخ فى جناح البيت الخارجى الملاصق لدورات المياه ، وهو جناح تقشر ملطه وكلسه وبرزت أحجاره.وعطفة الحسنى اختفى طوارها تماما ، ولا أحد يذكر أنه كان لها طواران سواى بوصفى من مواليد هذ البيت ، بخلاف أسرتى إبراهيم أفندى ساكن الدور الأوسط والشيخ محرم ساكن الدور الأرضى اللتين وفدتا إلى البيت منذ عشرين عاما على أكثر تقدير . على أيام صباى كان البيت كهلا لا بأس به ، والعطفة ذات أديم مبلط بالأحجـار وطوارين ، لا تقل فى رونقها عن شارع الشرفا الذى تنحدر إليه . اختفى الطواران تحت الأتربة والنفايات ، وهذه تتراكم يوما بعد يوم زاحفة من

الجانبين نحو وسط الطريق الضيق ، وعما قليل لن يبقى للسكان إلا ممر كالخندق يذهبون منه ويجيئون ، وربما ضاقت حافتاه عن أن تسع جسم ست فوزية حرم إبراهيم أفندى . يطبق على وجدانى شبح القدم وتوقع الانهيار وتفشى القذارة فيطاردنى الإحساس بالمرض . والخوف أيضا . وحيد فى شقة تفرق ساكنوها بين البيوت الجديدة والمقابر ، وموظف بالإضافة.. موظف وحيد فى بيت آيل للسقوط ، يئن فى قبضة الغلاء ، يتساءل عن مصيره لووقع زلزال أو غارة جوية فى هذه الأيام المنذرة بالحروب ، أو ماذا يحدث لو استوفى البيت عمره المتهالك فمات حتف أنفه وبلا سبب خارجى . وأعقدالعزم على مطاردة الهواجس بنفس القوة التى تطاردنى بها ، أن أسلم أمرى لله ، ألا أتعجل الهم قبل وقوعه ،أتناسى همومى فى المقهى بين الصحاب من الموظفين الكادحين أو بين يدى التلفزيون، تلفزيون المقهى. غير أن الهم يرجع كالكشف مايكون فى اليوم الأول من كل شهر . يوم يحسب حسابه الشيخ محرم وست فوزية التى تنوب عن زوجها فى المعاملات لقوة شخصيتها ، كما أحسب حسابه ألف مرة . فى هذا اليوم يهل علينا عبد الفتاح أفندى ساعى البريد ومالك البيت القديم . رجل فى الخمسين ، ما زال متمسكا بطربوشه ، ثقيل الظل ، ربما لا لعيب فيه . أنتبه إلى حضوره عندما يترامى إلى صوت ست فوزية وهى تنهره بخشونة وتلقمه الحجر تلو الحجر . أما أنا فأعالجه بالكياسة ما استطعت . أستقبله وأجالسه على كنبة وحيدة وأقدم له الشاى . ويطيب له أن يرد التحية فيسألنى :

— بودى أن أجىء مرة فأجدك مكملا نصف دينك !

فأسأله وأنا أدارى غصة :

ـــ عندك عروس وزيجة بالمجان ؟

فينفخ بخار الشاى ويحسو حسوة ذات فحيح ويهز رأسه دون أن ينبس . وأقدم له الإيجار ، ثلاثة جنيهات ، فيتناولها باسما فى سخرية ، يفندها بين أصابعه ، يقول :

ـــ أقل من ثمن كيلو لحمة ، والاسم مالك بيت ..

ثم يواصل متشجعا بصمتى :

ـــ أموال أيتام يعلم الله .

فأقول :

ـــ مظلومان يتناطحان ، ولكن ما الحيلة ؟ !

ـــ لولا احتلالكم للبيت لبعته بالشيء الفلانى .

ثم بنبرة وعظية :

ـــ وهو آيل للسقوط ، ألم تتذكر اللجنة ؟

فأتساءل :

ـــ وهل نلقى بأنفسنا إلى الشارع ؟ !

أفتقد دائما الشعور بالاستقرار والأمان كما أفتقد الإحساس بالنظافة والصحة . على ذاك فحالى خير من الآخرين فإنى على الأقل وحيد . عن عجز لا عن رغبة ولكنى وحيد. حبيس كبْت ووحدة وبيت آيل للسقوط وعطفة تدفن تحت النفايات. أقوم بالمعجزات لأفوز بلقمة هنية ولو على فترات من الزمن، وكسوة تستر ماء وجه مدير إدارة فرعية. أحلم بمسكن مما أرى فى إعلانات الجمعيات التعاونية، وعروس مما أشاهد فى صفحة العرائس الأسبوعية ، أو حتى مثل ست فوزية . أتعزى بقراءة « حلية الأولياء » ، بحياة الأولياء الصالحين الزاهدين المتوكلين الطارحين لهموم الدنيا تحت

أقدامهم واللائذين بطمأنينة خالدة . غير أن خبرا عارضا عن سقوط منزل أو عن إخلاء عمارة بقوة الشرطة عقب تصدع جانب منها ، يهزنى من الأعماق ، يستردنى من فردوس الأولياء ، يملؤنى بالرعب ، أين يذهبون ، ماذا يبقى لهم من المتاع ، كيف يتصرفون ؟ ! . ويتضاعف إحساسى بالوحدة رغم انتمائى إلى أسرة كالقبيلة متناثرة فى أنحاء المدينة الكبيرة:إخوة وأخوات وأقارب ووحدة خانقة ! . العواطف طيبة ولكن لابيت يرحب بجديد . كل بيت بالكاد يسع سكانه . وكل فرع ينوء بهمومه . قد أجد ملاذا ليوم أو أسبوع أما الإقامة الدائمة فهى ورم سرطانى لا يحتمل . وأهرع إلى المقهى فهو جنة المأوى . أجتمع بالزملاء فأستروح العزاء فى تبادل الشكوى . ومن عجب أننى معدود بينهم من المحظوظين لتوحدى وخفة حمولتى . وحدتى المرعبة قيمة محسودة . يا بختك لا زوجة ولا بنت ولا ولد . لا مشكلة أجيال ولا زواج بنات ولا دروس خصوصية . بوسعك أن تأكل لحمة مرة فى الأسبوع وربما مرتين . مسكنك الوحيد الذى لا يشهد شجارا ولا نقاشا . وأهز رأسى فى رضا ولكننى أتساءل فى باطنى هل نسوا آلام الكبت والوحدة ! . غير أنى أجد فى أنينهم المتواصل سلوى مثل دفقة ضوء تلقى على قبر . ويقول لى أحدهم مرة :

— عندى حل لكافة مشكلاتك .

فأنظر إليه باهتمام وأنتظر فيقول :

— زيجة ، توفر المسكن واليسر ولا تكلفك مليما واحدا .

ثم فيما يشبه الهمس :

ـــ امرأة تناسب المقام .

وأتخيل فى الحال امرأة لا تملك من الأنوثة إلا شهادة السجل المدنى . وسيلة شاذة من وسائل الإنقاذ مثل الانحراف والجرائم الخفية ، طوق نجاة مثل جثة طافية . الحق أننى فقدت الأمل ولكننى مازلت محتفظا بالكبرياء . من أجل ذلك يصفوننى بالطيبة كمرادف للبلاهة . أتصبر وأقاوم . أعود إلى كتاب حلية الأولياء وأقرأ جرائد المعارضة . ربما ألجأ أحيانا إلى حيل الطفيليين ولكنها زلة تغتفر . أزور بيوت الأهل فى غير أوقات الغداء إمعانا فى إظهار البراءة على أمل أن أدعى إلى وليمة ، ولكن روح العصر لم تعد تؤمن بهذه التقاليد العريقة . ويختلف الأمر بالنسبة للمواسم والأعياد فيسعدنى الحظ بوليمة أو وليمتين فى العام . وما أن يتهادى إلى صوت ربة البيت وهى تقول :

ـــ ما أنت بالغريب ولا بالضيف، اعتبر نفسك فى بيتك..

ما إن تلوح هذه الإشارة الخضراء حتى أنقض على المائدة مثل نسر جائع وكأنما أشهد العشاء الأخير . الأدهى من ذلك كله أننى مواطن عادى ، لا طموح عنده ولا خيال . نلت من التعليم مايكفى وألحقتنى القوى العاملة بإدارة ما . ما تمنيت بعد ذلك إلا بنتا طيبة وشقة صغيرة . انقلبت الدنيا لا أدرى كيف وماجت بالعجائب . وتحددت إقامتى فى البيت المتهالك . وكلما ارتفع مرتبى انخفض كأنه فزورة من فوازير رمضان . ذاب شبابى فى التضخم وكل يوم أغالب أمواجا هادرة تهددنى بالغرق .

ويقال لى :

ـــ هاجر ففى الأسفار مليون فائدة..

ولكنى بطىء الحركة ومشدود للأرض و لم أستسلم لقبضة اليأس . من حين لآخر تومض فى سمائى المظلمة بارقة . تنعشنى تصريحات الوزراء وطلقات المعارضة ونوادر الأولياء . ألم يكن ابن حنبل يتصدق بالجوائز السنية وهو يتضور جوعا ؟ . وأتسلى أحيانا فى نافذتى وأنا أرقب ست فوزية وهى تتبختر فى الخندق بين حافتيه المطبقتين . وذات يوم قررت أن أزور مدفن الأسرة بعد انقطاع طويل باعتباره الملجأ الأخير إذا وقعت الواقعة . هناك توجد حجرة الرحمة كما توجد دورة للمياه فهى مأوى من لا مأوى له .

رأيت القبرين القديمين تحت السماء وشجيرات الصبار فى الأركان ، أما حجرة الرحمة إلى يمين القادم فقد انقلبت خلية نحل تموج بالنساء والأطفال والأثاث البالى المكوم ومواقد الغاز والحلل وتعبق بروائح التقلية والفول والباذنجان والزيت المقلى . رمقتنى أعين المستوطنين بتوجس وقرأت فى أعماقها نذر التحدى . ابتسمت فى استسلام ووقفت قبالتهم متحررا من القوة والجد . وقلت لامرأة ذكرنى حجمها بست فوزية :

ـــ لا بأس ، ولكن ما العمل لو احتجت إلى الحجرة كمأوى ؟

فقالت ضاحكة :

ـــ أنت صاحب حق ونحن ضيوفك ، ننزل لك عن ركن ، والناس للناس ..

فقلت ممتنا فى الظاهر :

ـــ جوزيت خيرا ..

ومرقت إلى القبرين لأتلو الفاتحة . تخيلت الأجيال التى لم يبق منها إلا

هياكل عظمية . رعيل من أهل الحرف والتجار والموظفين وستات البيوت وخالى لم أدرك عصره ولكنى سمعت الرواة يحكون أسطورة استشهاده فى ثورة ١٩١٩ .

وقفت مليا وأنا أناجيهم بصوت غير مسموع :

— أمدونى يرحمكم الله بإيمانكم ، وهبنى يا خالى شيئا من شجاعتك !

عِنْدَمَا يَأْتِي الرَّخَاءُ

مات الأب ففقد الابن عرشه . ذلك أنه كان وحيد أبويه ، ولى العهد المدلل ، المغموس فى نعيم الحنان . ما أن بلغ الحلم حتى زوجه أبوه ليفرح به فأنجب بدوره ابنا وحيدا ، وزوجه فى حياة أبيه ليفرح به أيضا . أما الأب المدلل فأفسده الدلع فقعد عن التعليم دون أن يحصل على الابتدائية وأما الحفيد فقد نال التجارة الثانوية بطلوع الروح . وعقب وفاة الأب — الجد — وجد الخليفة الأول نفسه وحيدا عاطلا ، والخليفة الثانى كاتبا على الآلة الكاتبة .

— كان أبى سمسارا رزقه موفور ولكن ينفق عن سعة ، عشنا فى حياته كالملوك غير أنه لم يخلف شيئا .

أو ورّثه بيتا من ثلاثة أدوار ودكان بالسيدة ، يقيم هو فى دور وابنه فى دور ويقبض إيجار الدور الثالث والدكان ستة جنيهات كل شهر ، مثل مرتب ابنه . أجل كان المبلغ كافيا لمعيشة أسرة فى مطلع القرن ولكنه لا يهيئ لها أى لون من ألوان الترفيه المشروع .

— كيف أطيق هذه الحياة أنا ربيب النعيم ، طعامى طعام ولائم ، وملبسى أنموذج للأناقة ، مجلسى فى قهوة الشيشة ، ونزهتى عند كشكش بك ومنيرة المهدية ، كيف أطيق هذه الحياة ؟

ويقول له ابنه معاتبا :

To: www.al-mostafa.com

— لم عجلت بتزويجى ؟ .. ها أنا أب وأنا دون العشرين ..

فيجيبه متنهدا :

— إنما الأعمال بالنيات يا بنى ! ، أنا أيضا وجدتنى زوجا لبنت تكبرنى بأعوام قبل أن أفرق بين الألف والباء !

وكان المستحق الوحيد لوقف جده للمرحومة أمه فزار لأول مرة إدارة الأوقاف الأهلية مسوقا بنبضة أمل رغم ما سبق له علمه عن طريق أبيه .

وقال له الموظف المختص :

— ثروتك على الورق ضخمة ، أربع قطع أراضى فضاء بالمنشية ، ومال بدل ناتج عن دخول قطعة خامسة فى التنظيم مقداره أربعون ألفا من الجنيهات ..

فتساءل بصوت متهدج كيف يمكنه الانتفاع بثروته فقال الموظف :

— لا شىء للأسف ، الأرض وقف لا تمس ، والمال وقف لا يمس ، وهو مودع فى البنك بلا فوائد لأن الفوائد ربا والربا حرام وكل حرام فى النار .

وهذه النار التى تندلع فى قلبه وآماله ؟ ! . لم يعد له من حديث إلا الوقف والحرمان . ويطوف بالأراضى الفضاء المطروحة كخرائب ، ويسأل عن أجر المثل فيحسب ثمنها بما لا يقل عن ثمانين ألفا من الجنيهات بالإضافة إلى مال البدل ، وراح يهذى بالثروة والحرمان والفقر والحظ .

وقال له عمه :

— بع بيتك واستثمر ثمنه فى عمل نافع .

ولكنه يقول معترفا بالحقيقة الصخرية :

— لا أصلح لشيء يا عمي .

ويستطرد باسما في حياء :

— الله يغفر لك يا أبي .

والزمن يسترق الخطى ، لا يبالي ولا يمهل ، فيتوغل الرجل في الشباب حتى يرق ذروته ويطل على الرجولة دون أدنى رغبة فيها . تتبلور شخصيته بين الأصحاب والأقارب نمطا للإنسان الشاكي الباكي ، بجنون الوقف ومال البدل وأجر المثل . يضحك منه في الخفاء من يشفق من الجهر ، ويعالنه بالسخرية من يضيق به ، ومن وراء وراء يقولون عنه :

— سيجن ذات يوم .

— بل جن فعلا وما كان كان ..

وتغزو مظاهر الحضارة حتى الأحياء الوطنية . وجاوزت السيارات حدود الندرة . وكذلك المطاعم والملاهي . وانطلق الرعيل الأول من الحسان سافرات الوجوه بأعين مكحولة وشفاه مصبوغة . هذا وامرأته منهمكة بين الطهي والغسيل والمكنسة فبرزت الست العاملة وتوارت الأنثى المغرية . وهو خلقه الله جميلا يحب الجمال فتنمر وتوثب للنزاع والنكد . تقول امرأته :

— ما حيلتي ! ، ابتليت به أفظع مما ابتلي هو بالحياة ..

ويقول هو :

— أنا غني محكوم عليه بالفقر ، والدنيا حلوة ..

ويقول له عمه :

— الدنيا حظوظ ، ولله في خلقه شئون ، والسعيد من يمتثل لإرادة

الله .

فيقول :

ــ أنا مظلوم .. .. مظلوم .. مظلوم ..

ــ وما الحيلة يابن أخى ؟

ــ أحرام أيضا أن أشكو الظلم ؟!

فيقول الرجل مداريا ضيقه بابتسامة لا لون لها :

ــ أليس لكل إنسان همومه ؟ !

وتتوثق العلاقة بينه وبين إدارة الأوقاف . يصبح نجما فى سمائها المنسوجة من خيوط العنكبوت . ويمدون له فى حبل الأمل .

ــ ألا تتابع حملات الجرائد على جمود الوقف ؟

ــ انتظر خيرا قريبا .

وتنشب الحرب العالمية الثانية ، يتسنم ذروة الرجولة فينحدر نحو الكهولة ، ويتلقى من الغيب نذرا فى صورة شعيرات بيضاء لمعت فى سوالفه وشاربه الذى يعتز به أيما اعتزاز . وتشرئب الأسعار برءوسها فى بطء واستمرار فيهتز الباقى من أمنه . على حين تنتشر مظاهر الحضارة واللهو ، وتتلألأ الشوارع بالسيقان والأذرع والنحور ، ويتدفق المنهل العذب يدعو الشاربين للورود ، وتسرع زوجته إلى الكهولة والخراب .

ــ كان فى البيت رجل واحد فأمسى فيه اثنان !

وتقول امرأته لجارة لها :

ــ لو تحققت أمنيته فى الصباح لتزوج علىَّ قبل مجىء المساء ، لا حقق الله أمنيته !

ويقول له ابنه :

— لم تعد الحياة كما كانت ، القروش مثل العصافير سرعان ما تطير ..

ويقول له موظف الوقف الأهلى :

— لا يمكن مواجهة أعباء الحياة بريع بيتك ، انزل عن كبريائك وحرر عريضة يطلب شيء من الخيرات ..

وبعد تردد راقت له الفكرة . ولما لم يكن يحسن الكتابة فقد تولاها عنه الرجل . وقال له برجاء :

— ربنا أمر بالستر .

فقال له الموظف :

— سرك فى بئر ..

وتزوره مندوبة الوزارة لإجراء التحريات التقليدية . تتفقد البيت وأثاثه القديم وهو يتابعها بكآبة . ثم يقول لها بدافع من كبريائه :

— سلى يا ابنتى عن أصلى فى إدارة الأوقاف .

فتقول له بعذوبة :

— أعرف كل شيء ..

وانتبه إلى نضارة وجهها وهندسة جسمها لأول مرة .

سألها فى دعابة :

— ألا تمنح الوزارة بدلا من المرتب أشياء عينية ؟

فتساءلت فى براءة :

— مثل ماذا ؟

فقال ضاحكا :

— مثلك يا ابنتى !

فودعته ضاحكة . وصرخت زوجته :

— تحت سمعى وبصرى ولا تتورع عن المغازلة ..

فقال بجدية مصطنعة :

— غازلتها بالأصالة عن نفسى ونيابة عنك أيضا ..

فصاحت :

— ما يؤدبك إلا الفقر .

وتقرر له مرتب من الخيرات مقداره ثلاثة جنيهات شهريا . وسأل الموظف ممتعضا :

— ثلاثة جنيهات ؟!

فقال الرجل :

— مناسب جدا بالقياس إلى أمثاله .

— لا يساوى ما بذلت من كرامتى ..

— الأسر التى أناخ عليها الدهر أكثر مما تتصور .

على أى حال زار المفتشة فى إدارة التحريات ، فى الظاهر ليشكرها ، وفى الحقيقة ليتملى شبابها ونضارتها . ورجع إلى بيته وفى قلبه حلم . وأنجب الحلم أحلاما أخرى عن ڤيللا وسيارة ومائدة . أما الواقع فلم يتمخض إلا عن غلاء يرتفع ، ومغريات تنتشر ، وشيب يتفشى ، وضغط دم — ذلك الداء المتوارث فى أسرته — يستقر . وتمزقت روابط الزوجية حتى حل الكره محل الرحمة . تقول له :

— لا أرى فى وجهك إلا العبوس .

فيقول :

— حب الحياة ليس جريمة .

— اشكر ربك على الابن والصحة .

— ابني يتأوه وصحتي تلفت .

— إلى رفيقة عمرك .

— هذه هي المصيبة .

— تأخذني برتقالة وتعرض عني قشرة .

— بل قشرة من أول يوم .

ورق الابن لأمه فاقترح عليها أن تقيم معه بعض الوقت ولكنها قالت له معتذرة :

— سيبحث عن خادمة ولا أستبعد أن يتزوجها .

وتتقدم الأيام فيكثر كل شيء سيئ ويقل كل شيء حسن . ويتلقى الرجل أنباء قيام ثورة يوليو وهو يعاني من أوجاعه فلا يثير اهتمامه أي حدث عام .

ويتلقى بعد ذلك أنباء حل الوقف وتوزيعه على أصحابه وهو طريح الفراش بصفة نهائية . ويسرح ببصره في الغيب طويلا ، طويلا . طويلا ، ثم يتمتم :

— حكمتك يا رب ..

عِندَما يَأتي المَساء

تنفجر عواصف الخماسين الغبراء الساخنة فى عز أيام الربيع . توفيت الست الكبيرة عن ثمانين عاما مخلفة لا بنتها ڤيللا بالهرم وبضعة آلاف من الأموال السائلة . وكانت الابنة الستينية تقضى مع زوجها السبعينى الفترة المتبقية من العمر يظلهما الوفاق والهدوء واليسر . وحركت الثروة الطارئة الطموح إلى حياة جديدة ، فقالت الزوجة :

ـــ نستطيع الآن أن نعيش فى ڤيللا جميلة بالهرم ، وأن نغادر هذا الشارع الكئيب .

فتجلت فى عينى الزوج نظرة فاترة وغمغم :

ـــ الهرم ؟

ثم واصل :

ـــ شقتنا مريحة ، عشرة عمر طويل ، بدأ بشهر العسل ، وجميع المعارف والأحباب حولنا ..

فقالت بازدراء :

ـــ لو تكن جنة لحق لنا أن نملها ..

ولم تأخذ معارضته مأخذ الجد وراحت تفكر بصوت مرتفع :

ـــ القيللا تحتاج لتجديدات بسيطة ، وشىء من الديكورات ، وبها أثاث يمكن الاحتفاظ به وبيع ما يماثله من أثاثنا مثل حجرة السفر

والمطبخ ، ويلزمنا شيء من التنجيد أيضا ، النقود متوفرة والحمد لله ، ومما يزيد من مزاياها أنها تقع في شارع داخلي مسفلت ومشجر وهادئ بالقياس إلى الشارع العمومي ..

واعترت الزوج كآبة فراح يفكر بصوت مرتفع أيضا :

— بين الجنايني موقع عتيق حقا ولكن العمارة جديدة نسبيا ، شيدت منذ خمسين عاما ومؤكد أنها تستطيع أن تحافظ على صلاحيتها خمسين عاما جديدة ، الشقة لا ينقصها شيء ، شمسها متوفرة وهواؤها طيب ، وأهم من ذلك كله يوجد حولنا جيران العمر ؛ أنا رجل عجوز ، فراغي طويل ، ولولا بقية من أصدقاء ما تحملت الحياة ، بنتي الوحيدة وزوجها في السعودية ، والأقارب لا يتلاقون في هذا الزمان إلا في الجنازات الهامة !

وحدجته بنظرة أطل منها العناد والتجهم وتساءلت :

— أنضحي بما أتاح الله لنا من عيشة راضية من أجل مزاجك الشخصي؟!

اشتعلت أعصابه سريعة الاشتعال وقال بمرارة :

— عنادك يفترس إنسانيتك ، قدري حال رجل لم يعد له حظ من الدنيا إلا نفر من الأصدقاء ..

— حسبت أن لك زوجة أيضا !

— طبعا .. طبعا .. ولكن الرجل لا يستغني عن أصدقاء العمر !

— التلفزيون فيه الكفاية ولكنك مدمن سهر .

— كفي عن العناد وفكري بإنسانية .

— فكر أنت بشيء من العقل .

فى البدء كان الحب . فى الشباب الباكر كان الزواج . هو مهندس رى وهى ست بيت وحاملة للابتدائية أيضا . أنجبا ابنة وحيدة ، طبيبة متزوجة من طبيب ويعملان فى السعودية . عبرا سنوات التعارف والتوافق وعثرات الاختلاف فى الذوق والعادات بنجاح حتى استقرا فى سكينة الشيخوخة . رغم ذلك قال لنفسه بقلق « إنها عنيدة وإذا تسلطت عليها فكرة انقلبت حجرا صلدا لا سبيل إلى التفاهم معه » وقالت لنفسها « إنه طفل مدلل عصبى ويبيع بالدنيا مزاجه » . وشرعت فى تجديد الڤيللا فانقبض صدره وغشيته سحب المخاوف . وقال لها :

— أجريها مفروشة تدر عليك الشىء الفلانى .

ولكنها قالت بإصرار :

— ما حاجتنا إلى النقود فى هذه السن ؟ ، ولا ابنتنا فى حاجة إليها ، ولكن من حقنا أن ننعم بشىء من الراحة والجمال وحسن الختام .

— وأصحابى ؟ ! ، تذكرى أزمة المواصلات ، الانتقال معناه العزلة ، وفى العزلة قضاء على !

— ربنا يكملك بالعقل وسداد الرأى .

لم يعشق هواية مما تثرى الفراغ . ترك لتيار الزمن بلا طوق نجاة . يستيقظ من نومه حوالى الظهر وينتظر المساء.تدينه صادق وبسيط ولا يشغل له بالا . يهرع مع الليل إلى منظرة صديق على المعاش كان معلم لغة عربية ، يملك بيتا صغيرا ذا حديقة صغيرة ، ويوافيهما ضابط جيش عجوز على المعاش أيضا وصيدلى قبطى اعتزل العمل . يتسامرون ، يلعبون النرد ، يحتسون الشاى أو المرطبات تبعا للفصول ، يدخنون ، ثم يفترقون

عند اقتراب الفجر إلى مساكنهم المتقاربة فى بين الجنابين . فى الزمان الأول كانت البيوت تطل على الحقول والحدائق وتعبق بشذا الحناء وتغوص فى الهدوء . اليوم اكتظت بالبيوت والسكان ، والخرائب الموقوفة التى انقلبت أسواقا لتجارة الخردة وقطع الغيار القديمة ، وازدحم الطريق بالصبية وصار ناديا أهليا للعب الكرة ، ولكن القلب ما زال يجد سلواه فى المناجاة والسمر . ماذا يتبقى له فى الحياة إذا حرم من هذه السلوى الباقية ؟! . وقال لها أخيرا بنبرة حاسمة :

ـــ لن أغادر هذه الشقة إلا إلى القبر .

فقالت بحنق :

ـــ إذا تم إعداد الفيللا فلن أبقى هنا لحظة واحدة .

فارتفع صوته وهو يقول :

ـــ أنت امرأة عنيدة بلا قلب .

فهتفت :

ـــ أنت أنانى لا يهمك إلا مزاجك .

ـــ لى عليك حق الطاعة .

ـــ الطاعة من حق العاقل .

ـــ قلة أدب .

ـــ أنا بنت ناس علموا الناس الأدب .

ـــ لى الجنة على احتمال عشرتك .

ـــ الحق أنى أنا الشهيدة ، لولا صبرى لعشت طيلة عمرك وحيدا ..

ـــ أنا ؟!

— نعم .. آه لو أفرغ قلبي ما فيه !

— جنس جاحد حقيقة .

— أجرى عند الله وحده ، هل نسيت افتضاح سلوكك عام ١٩٢٦ ؟ !

— ١٩٢٦ ! ، يا ألطاف الله ! ،إنى لا أتذكر ما يقع بالأمس ..

— ولكننى لا أنسى ،ولا أنسى فجورك وأنت مفتش رى بكفر الشيخ فى ١٩٣٠ !

— حقا إنك ذاكرة مذهلة لحفظ أنباء السوء وتنسين ما عدا ذلك ، نسيت على سبيل المثال أننى ضحيت بأجمل عروس من أجلك ..

— بل سال لعابك دائما طمعا فى مساعدات بابا الله يرحمه ... أنانى ونفعى !

— قذارة وقلة أدب .

— اخرس !

وانتفض واقفا ووجهه يموج بالغضب فانتصب عنقها فى تحد رغم توقعها عدوانا قياسا على مرات متباعدة لا تستطيع أن تنساها أبدا . غير أنه كظم غيظه وقال وهو يغادر الحجرة :

— ليكن فى علمك أن مغادرة الشقة تعنى الطلاق .

فصرخت :

— إنى أرحب به وإن جاء متأخرا .

وعلى أثر رسالتين تلقتهما من الأم والأب حضرت الابنة من السعودية دون إبطاء . انفردت بالأم محاولة إقناعها ففشلت . و لم تكن أكثر توفيقا

مع أبيها . وجمعت بينهما وقالت :

ـــ من المبكى والمضحك معا أن يجرى للطلاق ذكر بينكما فى هذه المرحلة من العمر ، فليغفر الله لكما هذه السقطة اللسانية الشنيعة ..

ونقلت بينهما عينا حزينة وواصلت :

ـــ انتقلى يا ماما إلى الفيللا وابق يا بابا فى الشقة ، وأجلا قراركما الأخير للزمن والوحدة ..

وشملهم صمت ثقيل خففته بدعابات متكلفة صدرت عن نفس مليئة بالشجن ثم ودعتهما راجعة إلى مقر عملها وقد اقتنع كل طرف بأنها منحازة إليه فى أعماقها وإن أبت أن تعلن رأيها مجاملة للطرف الآخر .

ووقع الانفصال ممزقا لأول مرة وحدة حياة مشتركة طويلة العمر . انتقلت الزوجة لتستقبل حياة أنيقة ثرية مترعة بالوحشة . ولبث الزوج فى شقة مقفرة عارية الحجرات إلا حجرة نومه المكونة من فراش مفرد وصوان قديم وكليم صغير ، واقتصر المطبخ على الأوعية والأوانى الضرورية وموقد بوتاجاز صغير ومائدة ذات مقعد وحيد وفريجدير لحفظ الطعام . وتم الاتفاق على أن تجهز له طعامه الأسبوعى طاهية الأسرة فى يوم معين على أن يقوم هو بإعداد الوجبات وغسل الأوانى . وكان ينام نهاره كله هربا من وحدته وينتظر على لهف ميعاد السهرة التى يمارس فيها حياته الحقيقية . وحاول الأصدقاء أن يجدوا للمشكلة حلا آخر ولكنه قال :

ـــ لا تشغلوا بالكم يا جماعة ، المهم أن تسعفنى الصحة حتى النهاية ..

واعتبرت الزوجة أن كل يوم يفوت من غير أن يقر بخطئه إهانة متجددة لكرامتها وجرحا يغوص فى كبريائها . ويشتد حقدها وغضبها . وتعالج

الوقت الطويل الملقى عليها بزيارة الأقارب لتشريحه بلا رحمة وفضح ما خفى من مساوئه . ويبلغه ذلك فيرد اللطمة بعشر أمثالها حتى تجسدت حياتهما المشتركة فى صورة سوداء تثير الفزع. وجرى الزمن والخصام يزداد سوءا وفظاعة . وانعقدت السهرة ذات ليلة وهو غائب على غير عادة ، ولكنه جاء متأخرا عن موعده وهم يتجاذبون القلق والظنون . وقال كالمعتذر :

ــ شعرت بوعكة مما يطرأ فى تغير الفصول .

وكانت الوحدة التى يعيش مهملا فى طياتها تحزنهم فأقبلوا يناقشونها بجدية :

ــ لا تأمن للحاضر وعليك أن تفكر فى المستقبل .

فقال بهدوء وهو يدارى ضيقه :

ــ فعلت ذلك كثيرا !

ــ وكيف انتهيت ؟

ــ قررت أن أكف عن التفكير ..

وضحك ثم واصل :

ــ أعرف ما يقلقكم ، ماذا أفعل لو أقعدنى المرض أو حضرنى الموت ! ، سأكون سعيدا إذا قدر لى موت خاطف ، وإن تكن الأخرى فما جدوى التفكير إلا مكابدة الهم قبل وقوعه ..

ــ ولكن لكل مشكلة حل .

فهتف :

ــ فات أوان الوفاق ، ثم إنها عنيدة ، والاستسلام يعنى بالنسبة لى

انتحارا بطيئا ..

وضحك عاليا وقال :

ــ إذا حم القضاء وجدنى الموت وحيدا لا مفر ، وما عليكم إذا تخلفت ليلة و لم يفتح بابى إلا أن تتخذوا الإجراءات المألوفة ، وآسف مقدما على إزعاجكم ..

تَحتَ السَّمْعِ وَالبَصَر

حقا إن الشارع خال أو شبه خال فيما يبدو ولكن لا يخلو شارع من آدميين . إنه شارع جانبي يوصل بين طريقين عموميين . وهو سكني لا توجد به إلا دكان كواء . مع هبوط المساء من فوق رءوس الأشجار على الجانبين أغلقه صاحبه وذهب . سبحت أضواء مصباحين فى أول الطريق وآخره فى العتمة المتزايدة فأضفت على الجو لونا غامضا بين النور والظلام . واستقرت سيارتان متباعدتان فى موقفيهما بحذاء الطوار مسربلتين بغطاءين من الشمع الرمادى ، وانتظرت بقية الفراغات السيارات القادمة . وخيم على الشارع هدوء خامل جدير بممر نادر الرواد وأضاءت نوافذ المساكن بالأنوار وهى مفتوحة لتلقى نسائم الربيع .. من أجل ذلك انتشرت أصوات تلك المشاجرة الزوجية من إحدى النوافذ فبلغت النوافذ القريبة وتمادت فى ذيوعها حتى كدرت هدوء الشارع . أنت وحش . أنت مجنونة . لن أبقى فى هذا البيت ساعة أخرى . مجنونة . فى يدى الدليل ، مصيرك المحتوم مستشفى الأمراض العقلية . مصير أمك وأخواتك . تحطمين تحفة ثمنها مائة وخمسون جنيها ! . سأشعل النار فى هذا البيت العفن . ويعلو الصراخ مختلطا بصوت هادر ومزيد من طقطقة التحطيم مصحوبة بعويل أطفال . ومر عابر بالشارع فتوقف قليلا تحت النافذة ثم ضحك طويلا وواصل سيره . وتجلت أشباح آدميين فى النوافذ

القريبة . ولما استمرت المعركة نوقشت على نطاق واسع . خناقة حامية . ليست الأولى . لكنها الأعنف . ألا يمكن عمل شيء ؟ . مثل ماذا ؟ أنتدخل مثلا ؟ . لكننا لا نعرفهم ، نتقابل أحيانا فى مدخل العمارة فلا نتبادل تحية . الواجب . يسوءهم ذلك . لن تنتهى الليلة على خير . ربنا موجود . الرّجل مجنون وبريق عينيه المخيف لا ينسى . لا تبالغى هى أيضا لها حركات عصبية مريبة . هو السبب هذا واضح . أو العكس تماما وهو ما أعتقد . لكل رجل شيطانه . ولكل امرأة . الرجال ظالمون بالفطرة . ما هم إلا ضحايا . ضحايا ؟ ! . الله شهيد . معركة غير متكافئة وسيقع أذى لا شك فيه . حطمت فى غضبها تحفة ثمنها مائة وخمسون جنيها . من عذابها أو جنونها . من أدراك أنت ؟ . أهذه حنجرة امرأة عاقلة ؟ ! . أفقدها وعيها . المعركة تشتد ولا أحد يبالى بالأطفال . أمه وأخواته وراء ذلك كله . لا ، المسألة أخطر من ذلك ، فتشى عن الميزانية . يرى كثيرا وهو يشترى الخمور . هى أيضا متبرجة أكثر من اللازم . ألا ترى أن المعركة لا تقف عند حد ؟ . أجل اشتد النزاع وارتفعت الأصوات أكثر وتوكد أن الليلة لن تمر بسلام . اترك ذراعى يا مجرم . مجنونة لا تحسب حسابا للفضيحة . دعنى أطلب النجدة . إذن أطلب مستشفى الأمراض العقلية . تضربنى ! ، ستدفع ثمن اللطمة غاليا . وينفجر صوات مخيف ثم ينكتم الصوت تحت ضغط راحة يد فيما بدا . ولأول مرة تجيء فترة سكون عدا عويل الأطفال تمتد دقائق وإذا بالصوت يهبط إلى الشارع . شبح المرأة يغادر باب العمارة مهرولا نحو الطوار الآخر . تتبعها الأعين على ضوء المصباح البعيد . هربت من البيت . لعله الحل الوحيد . بملابس

البيت وغالبا لا تملك مليما . ترى أين يقيم أهلها ؟ . هل نتركها فى الطريق ؟ . لو آويناها لوجدنا أنفسنا طرفا فى المعركة . كيف تتصرف المسكينة ؟ . تستقل تاكسى وهناك ستجد من يؤدى عنها الأجرة ، لم يتحرك أحد لنجدتها . مرة رجل تدخل بحسن نية فاتهمه الزوج ووقع فى مصيبة . يا لها من دنيا مخيفة . ما باليد حيلة . وقبل أن تبلغ المرأة منتصف الشارع اندفع شبح الزوج من باب العمارة فاشتعل الاهتمام لأقصى حد . جرى نحو المرأة حتى أمسك بها . تراءت وهى تقاومه وتراءى وهو يجذبها بشدة . صرخت مستغيثة بالناس فاشتد فى جذبها ، وبلغ الصراع أعنف أحواله . ويمر عابر جديد للشارع فيقف على مبعدة ويهتف :

— كفى هذا لا يليق .

فصاح به الزوج :

— ابعد وإلا حطمت رأسك .

يبتعد الرجل خطوات ، يتردد قليلا ثم يمضى فى طريقه . وتنطلق من حنجرة الزوج صرخة كالعواء :

— تعضيننى يا كلبة .. سأقتلك .

ويركلها ركلة حانقة غاضبة متأججة بالرغبة فى الانتقام فتقع المرأة متلوية صارخة . ولم يقنع الرجل بذلك فما زال ألمه الحاد يستفزه إلى المزيد فعدا نحو العمارة صائحا :

— سأذبحك عليك اللعنة ، وعلى الدنيا ألف لعنة .

وسرى الرعب فى المطلين من النوافذ . ركلها ركلة قاتلة . ولكنه جن وسيرجع بسكين يجهز بها عليها . لا ، مجرد كلام . نطلب النجدة .

سنصبح أسرى إجراءات معقدة حتى يصدر الحكم . لا بد من طلب النجدة . سيصدق علينا المثل القائل خيرا تفعل شرا تلقى . هل نتركها ملقاة حتى تذبح ؟ . لن يحدث شيء ، هي عضته وهو ركلها وانتهى الأمر . نذهب إليها فقد تكون فى حاجة إلى إسعاف . ليس الآن فقد يرجع المجنون ! . وأصر رجل فى العمارة المقابلة على الطوار الآخر على طلب النجدة . وطلبها بالفعل وحثها على الإسراع وسئل عن اسمه ورقم تليفونه ، وهمس لزوجه بذلك فحذرته العواقب فأغلق السكة . أما الزوجة فمضت تزحف على أربع وتئن وتستغيث وقد بح صوتها . وهرع نحوها عابر جديد فانحنى فوقها وحاول مساعدتها على القيام وهو يتساءل عما حل بها . وعند ذاك ظهر الزوج مرة أخرى وانقض نحو المرأة رافعا يده بالسكين . رآه الرجل الذى خف لمساعدة الزوجة ففزع من منظره وفزع أكثر لما رأى السكين فى يده . تراجع مهرولا وهو يهتف :

— اعقل .. ستلقى بنفسك إلى الهلاك .

ولكن الجنون كان قد تسلط تماما على وعى الزوج وأصدر قراره بالخراب الشامل . هوت يده بالسكين فى الرقبة فغاصت فيها حتى مقبضها منتزعة صرخة غليظة يائسة ذات نبرة عدمية ، مصحوبة بحركة عنيفة نهائية لا أمل بعدها . ورغم أنه كان يلهث إلا أنه وقف فى غاية من الهدوء والاستسلام والبلادة والزهد ملقيا بكل شيء وراء ظهره . صوتت امرأة فى النافذة . سقطت أخرى مغمى عليها . اشتد توتر الأعصاب . لا بد من الاتصال بالنجدة . ما الفائدة ؟ ستجيء عاجلا أو آجلا . لعله ما زال يوجد أمل فى إنقاذها . هيهات ! إنهم يحققون مع الشهود كما لو كانوا

متهمين . وربما وجدت نفسك متورطا فى خطأ لا يفطن إليه إلا رجال القانون.مهما يكن من أمر فعلينا أن نعترف بأن موقفنا شاذ وأنه لا يصدق عندى أمثلة بالعشرات تشهد بحماقة من يحشرون أنفسهم فى مثل هذا الأمر . الحق أننا أخطأنا ولا عذر لنا . ما جدوى الكلام ، ضاعت الست . وضاع الرجل . وضاع الأطفال . وربما لم نعف بعد ذلك كله من الاستجواب . وقد حصل فتحققت مخاوفهم . وأدلى كل بشهادته منتحلا لنفسه شتى المعاذير ، فمن كان يظن أن خلافا زوجيا يفضى إلى تلك النهاية ؟ ، ومن يجرؤ على التعرض لقاتل تلبسته حال جنونية ؟ ، وكلهم أنكر واقعة الاتصال بالنجدة ، وأكثر من واحد قال إنه القدر وأن الحذر لا ينجى من القدر .

ويحكى الضابط الحادثة فى مجالسه ويقول بمرارة :

ـــ كان من الممكن إنقاذ المرأة والرجل ولكن ذلك ما حدث دون زيادة !

آخِرُ اللَّيل

غادر الجحيم عند منتصف الليل . جميع أنوار الشارع المستقيم والشوارع المتقاطعة تنصهر فى باطنه ، تنفجر فى نافورة من الأضواء المتضاربة ، وأعلى العمائر يتراقص . لا ملمح هداية يستدل به فى خط سيره ، ولا علامة يسترشد بها ، فر الجميع وتلاشوا . السيارات تقل بعض الشيء ، الآدميون لا ينتهون . يترك نفسه لقدميه ، كما اعتاد أن يعتمد عليهما فى الملمات ، ومن تقده قدماه فلا يضل . ثمة قصة عن حمار مرموق ولكن ما هى ؟ . ها هو رجل قادم من الناحية الأخرى ، سيرتطم به إذا سار فى خط مستقيم . لكن القادم ينتبه إليه ، ينحرف ، لا شبرا أو شبرين ، ولكن إلى وسط الشارع كأنما يهرب . الجبان . تضاعف شعوره بقوته الكامنة ودار رأسه تيها . ولم يعد يقلق لنسيان قصة الحمار المرموق . واصل سيره يخوض الليل والأنوار ، يعرض عن أبواب المحال المغلقة ، ويتجاهل المارة . ووجد نفسه أمام مطعم « الرائد » فانطلق داخله حتى وقف أمام طاولة صاحبه الذى رمقه بنظرة حذرة :

— الدنيا صغيرة رغم ما يقال عنها ، أنا قادم إليك من آخر الدنيا .

فهز الرجل رأسه متعجبا :

— لن أوصيك فلست فى حاجة إلى توصية ، وأنت العليم بالزبائن ، وعارف طلبى ، تشكيلة محترمة من الكباب والكفتة والطرب مع كافة

السلطات والمخللات ، سخن العيش ، ولا تنس الحلوى . هل يطول الانتظار ؟

فقال المعلم :

ـــ بل نرسلها إلى البيت كالعادة .

ـــ تشكر .

ودس يده فى جيبه ولكن الآخر عاجله قائلا :

ـــ سنرسل الفاتورة مع الطعام .

فرفع يده تحية ثم ذهب . رجع إلى خوض الليل والأنوار وتجاهل المارة . وعاد يحاول تذكر قصة الحمار المرموق . حتى وجد نفسه أمام محل « الكبير » الحلوانى المعروف ، فاندفع حتى وقف أمام صاحبه :

ـــ الدنيا صغيرة رغم ما يقال عنها .

فقال الرجل باسما :

ـــ وأنت قادم من آخر الدنيا .

ـــ عمرك أطول من عمرى .

ـــ أعرف المطلوب ، تشكيلة من البسبوسة والكنافة والبقلاوة بأنواعها المختلفة .

ـــ كبير ابن كبير .

ـــ وستسبقك إلى البيت مع الفاتورة .

فرفع يديه شكرا ومضى إلى العالم الآخذ فى النعاس . واقتحمته ذكرى عزيزة جدا . ذكرى ذلك الرجل الذى صاحبه يوما مثل ظله . شد ما يستحق الرثاء بحكايته الغريبة . وخليق به أن يقول له شد حيلك واضرب

الدنيا بالمركرب فهى دنيا لا تستأهل إلا ضرب النعال . هو ثالث ثلاثة أشقاء وأصغرهم . نعم أصغرهم يا عزيزى فاشترك الآخران فى تدليلك فترة من الزمن ولو على سبيل المجاراة ومداراة الغيرة المتأصلة . وشاء الحظ وهو كل شيء فى الدنيا أن يوفقا فى المدارس فيصير الأكبر وكيل وزارة للمالية والأوسط كبير مفتشى الرى ، على حين أبى الحظ أن تحظى بأى قدر من التوفيق ، فحتى الحظ لم تفكه . ولكن ما قيمة ذلك لشخص قدر له أن يملك بالوراثة مائة فدان ؟ ! . وملكتها يا عزيزى ، ورحت تستمتع بها ، وتغدق فى الوقت نفسه على مساكين الأصدقاء وما أكثرهم ، فانهالت عليك الاتهامات لا أول لها ولا آخر ، ورميت فيما رميت به بالسفه ، واستصدروا عليك حكما بالحجر . سرقوك الشياطين . وقتروا عليك الرزق حتى انسدت فى وجهك الطرق ، ولم يكن عجيبا بعد ذلك أن تقسم لتجلبن عليهم الفضيحة والعار .

ووجد نفسه أمام حانة إيديال .

هش وبش واقتحم ستارها المسدل ذا الخيوط الخرزية البيضاء . رأى الفرسان فى الركن الأيمن حول الكئوس . وجموا لحظة وهم ينظرون . فقال ليذهب عنهم الروعة :

— لا ترتاعوا .. أخوكم من طين مثلكم !

فغلبهم الضحك وقال أحدهم :

— نقدم لك كأسا ؟

فقال باستعلاء :

— لاأسمح لقذارة بالدخول فى معدتى ، ولكنى سأهنئك قريبا بوكالة

الوزارة !

ـــ ربنا يسمع منك !

وسأله آخر :

ـــ أصحيح ما يقال ؟

ـــ وما هو ؟

ـــ أنه عرضت عليك وزارة الصناعة فرفضتها ؟

فقال بإباء :

ـــ لست ممن يبيعون أنفسهم عند أول طلب !

ـــ حتما ستقبلها فى ظروف أفضل ؟

ـــ وعند ذاك تهنأ البلد قبل أن أهنأ أنا .

ـــ رجل ولا كل الرجال ..

ـــ أنتم مدعوون عندى لقضاء سهرة رأس السنة .

ـــ وستكون ليلة ولا كل الليالى .

وغادر الحانة إلى عالم التيه . ومرة أخرى ذكر الرجل الذى صاحبه يوما مثل ظله . من الجحود ألا يزوره ليعزيه بكلمتين . إن موقفك يوم عزمت على أن تلطخ غرورهم بالعار موقف لا ينسى . خلعت البدلة يا بطل واستبدلت بها جلبابا أزرق . واقتنيت عربة يد وسرحت ببطيخ فى مجالهم الحيوى وعلى مرأى من الذاهب والجائى . وارتعدت منهم المفاصل وساقوا عليك الأهل والأصدقاء ولكنك صمدت صمود الأبطال . واضطروا فى النهاية أن يتجاهلوك متظاهرين باللامبالاة فتماديت فى التحدى ، وقضيت لياليك فى غرز عرب المحمدى . يا فارس الفرسان

وضارب الدنيا بنعلك . وحتى يتاح لى لقاؤك تقبل على البعد إعجابى وتقديرى . أما أنت يا نوسة ، يا سليلة الشرف ، وكنز الجمال والفتنة فحسبنا تعذيبا لأنفسنا . الدلال له حد أو هذا ما ينبغى له . اخترتك من بين آلاف من كريمات الأسر العريقة . و لم أخترك للأسباب التى يجرى وراءها الجشعون ، لا لأصلك الطيب ، أو أخلاقك الكريمة ، أو تعليمك الراقى ، ولكنى اخترتك من أجل الحقيقة السافرة ، عينيك اللوزيتين السوداوين بكحلهما الربانى ، وصدرك الملهم ، وخلفيتك التى تجل عن الوصف . ما يجوز أن نفترق بعد اليوم دقيقة واحدة يا زينة نساء الأرض . ضاع منا وقت طويل بلا طائل ، وضياعه كفر بالنعمه ، إنى قادم يا نوسة ، فارجعى إلى قسمتك ونصيبك فإن جميع طلباتك مستجابة . سر المأساة كلها فى كلمة أننى ولدت فى عصر يتشرد فيه الملوك فى بلاد الغربة ، كالمتسولين بعد أن خلفوا عروشهم وراءهم بيد السوقة ، ثم إنهم بعد ذلك لا يأمنون الغدر ولا ينجون من المؤامرات . بذلك تنبأ قارئ الكف ولكننى لم آخذه مأخذ الجد فى وقته ، وتركت الزمن يجرى كيف شاء حتى استحكم الحصار .

وقادته قدماه فى تجواله إلى البنك الأهلى الغارق فى نومه مسدل الأجفان . لعله من الحكمة أن يسحب من حسابه بعض المال ليواجه نفقاته الكثيرة ولكنه لا يستطيع أن ينتظر حتى الصباح . وخيل إليه أنه أصبح على حال تمكنه من الاهتداء إلى منزله العامر ، وأن هيئة الأشياء آخذة فى التغير رويدا رويدا ، وأن رأسه يتغير أيضا . حتى المشى لم يعد مستساغا إلى غير ما نهاية وأن جسمه يطالب بحظه من الراحة . ألعن الساعات ساعة

تعرف فيها من تكون و كم يتبقى من الزمن ، وتعرف أيضا أن الوقت صيف وأن الجو عدو الإنسان ، وأنه يرغم على التسليم دون شرط . ها هو النيل يجرى فى حال من الكآبة والاستسلام بعد أن كبل بالأغلال وأذعن لمشيئة البشر . وتحت الكوبرى توجد أريكة من الصوان خالية لم يشغلها صعلوك من صعاليك الليل بعد . تحسسها براحته ، ومضى إلى شاطئ النيل فعبر الحاجز الحجرى ثم انحدر نحو الماء . خلع جلبابه مبهم اللون وعلقه بفرع شجرة فبدا عاريا كما ولدته أمه . وراح يغوص فى الماء حتى غمر صدره ليزيل عن جسده الحرارة والعرق فى تلك الساعة من الليل . وغنى بصوت كالخوار « البحر بيضحك ليه » ، وغسل وجهه ورأسه الأصلع ثم صعد راجعا إلى الطوار آخذا جلبابه بيده . وانتظر حتى جف جلده وارتدى الجلباب ، واستلقى فوق الأريكة . وما لبث أن تلاشى فى الغيب فتصاعد شخيره مثل نقيق الضفدع ..

(التنظيم السرى)

القتل والضحك

م أكثر الراحلين . أدهش وأتحير كلما طافت أشباحهم بذاكرتى . أسباب متنوعة . متضاربة . وأحيانا متناقضة ، ولكنها تفضى إلى نهاية واحدة . ويطاردنى حلم ثابت . يلح على فى أوقات الفراغ وما أطولها . حلم خليق بصاحب ثأر تخلى عن إنجاز مهمته . وهو لا يفارقنى حتى فى ذلك البيت الخلوى الذى صادفته ذات يوم ناشدا النسيان ساعة أو بعض ساعة . أجلس إلى جانب المعلمة المتربعة فوق كنبة تركية مثل قاعدة تمثال — ضمن زوار — وأتفحص بعناية المكان ومعروضاته . أتصفح الوجوه البيضاء والسمراء والسوداء ، البدينة والملفوفة والنحيلة ، وهن جميعا على أتم الاستعداد . على مألوف التقاليد بتقديم الشراب فتهش المعلمة وتثنى على الأصل الطيب قائلة إن جل زبائنها يجيئون عادة من بين الصفوة . والشهادة لله أن المكان أنيق والأثاث كريم والنظافة متألقة ورائحة البخور مخدرة مقدسة . أما السيدة اللحيمة فتباهى قبل كل شىء بالأمن والأمان . وأظلنى الحلم القديم بجناح يقطر دما ، وبهمسات داعية للخير والفلاح . ووقع الاختيار على بيضاء نحيلة لا حول لها فقلت للمعلمة « الحمراء » ، أى ذات الفستان الأحمر : سرعان ما صرنا وحدنا فى الحجرة الصغيرة الكاملة فراحت تتجرد من فستانها وقميصها وتستلقى فى تسليم وسلامة . اقتربت من الفراش بكامل ملابسى يقودنى الحلم القديم . أعابث الخد

والعنق وأغوص فى اللحظة الحاسمة . وبسرعة أطوق العنق الرقيق الطويل بقبضتى وأشد عليه بكل ما أوتيت من قوة . غير متأثر بمقاومة يديها وعنف ركلات قدميها فى الهواء واستغاثة عينيها الجاحظتين اليائسة الملهوفة على النجاة . ولم أفك قبضتى حتى سكن كل شىء سكون الموت . وأقف وأنظر وقلبى يلهث فى دقات متتابعة . وأرى الموت وهو يضع قناعه فوق الوجود المتهالك ويرسم على صفحته النائية آى البعد واللامبالاة . وأفكر فى النجاة مؤجلا ما عداه . دون عجلة كيلا أثير التساؤل . ونظرت إلى نفسى فى مرآة صغيرة فى موضع عاكس للفراش والجثة . وأجهضت قشعريرة اقتحمتنى بقوة غير حميدة . وقلت لنفسى معزيا ومشجعا « أديت ما كان على أن أؤديه » . ها أنا أمضى نحو الباب . أفتحه ، أتركه مواربا زيادة فى إبعاد الشبهات ، وأسير متمهلا نحو الباب الخارجى متجاهلا المكان والحاضرين . وعندما أنتهى إلى الطريق النائم فى ليل الصيف أحث الخطى مدفوعا برغبة طارئة فى الهرب نحو الشارع الرئيسى . وأبلغ بنسيون ليدا وسط المدينة فى الهزيع الأخير من الليل . أتناول حبة منوم لا أتعامل معه عادة إلا عند الشدائد . صحوت من نومى قبيل الظهر مشتعل الرأس بالكسل والذكريات . طلبت الإفطار ولكننى حسوت الشاى وحده وأنا أقول لنفسى أنت من الآن فصاعدا قاتل جارى البحث عنه . ترى هل أحل مشكلتى بقوة الإرادة أو أننى أسير من سيئ إلى أسوأ ؟ . وماذا عن حياتى الجديدة بالتأمل فى هذه الساعة الفاصلة الدامية ؟ . فرد أعد للخيال ولكنه يتعيش من السمسرة ، معارفه بلا حصر ولا صديق له ، يمقت فكرة الزواج والإنجاب . وذهبت إلى البلفدير

بالهرم لأنفرد بنفسي وأفكر . جو لطيف فى أواخر الربيع والجلوس يحلو فى حديقة النخيل وأصص القرنفل . غالبا لم يعرفني أحد من الزبائن المعدودين . هناك لا يسأل أحد عن هويته ولكن حتما ستحصر التهمة فى جريمة يود الجميع أن تندثر وتختفى . أرفع قدح البيرة وأتخيل ما حدث . المعلمة تتساءل عما أخر البنت عن الرجوع إلى الصالة . ترسل فى طلبها . إما تفضح صرخة فزع الجريمة وإما يحبس الفزع فى الصدور ويدفن السر فى بئر . فى الحال الأولى ينفض السامر فى عجلة ولهوجة ويفر كل إلى حال سبيله . فى الحال الثانية يتواصل العمل فى أمان . وفى الحالين تفكر المعلمة كيف تخفى الجثة وتحمى نفسها وعملها من قبضة القانون . الجميع الآن يعملون على طمس أى أثر يمكن أن يؤدى إلى ، يتمنون لى السلامة ضمانا لسلامتهم وسمعتهم . أستطيع أن أهددهم وهم لا يستطيعون . لكن هل تنجح المعلمة فى إخفاء معالم الجريمة ؟ . ألا ينسرب إليها الخطر من منفذ لم يجر لحذرها فى خاطر ؟ . تناولت غداءى فى البلفدير مع مزيد من البيرة والنشوة . وعند هبوط العتمة مضيت فى تاكسى إلى الشارع . وتفحصت البيت وأنا أمر به . وجدته مسربلا فى هدوئه ورأيت النور يشع فى نافذتين ، وكأنما يواصل تقديم خدماته اليومية . ولم يكدر صفوى فى الليلة التالية إلا أننى رأيت فى نومى استغاثة الفتاة البائسة وهى تغوص فى الانكسار بين قبضتى . ولكن ذلك كان أهون ما توقعت . وتساءلت عن مستقرها الأخير ، أيكون قعر النيل أم مفازة فى الصحراء ، أم مدفنا فى باطن حديقة البيت الخلفية ؟ . سيشترك الجميع فى جريمة الإخفاء بدافع الرغبة فى النجاة والدفاع عن لقمة العيش ، وأفظع من ذلك ينسى فى وقت

أقصر من ذلك . وأتصفح الجرائد بعناية دون العثور على ما يكدر الطمأنينة . رغم ذلك لم يغب عن وجدانى ما حصل دقيقة واحدة . إنه حي بكل تفاصيله هناك . وهو يزعجنى أيما إزعاج . ولذلك تخطر لى أفكار جنونية لا بهدف التنفيذ ولكن حبا فى استعراضها ليس إلا ، كأن أبعث برسالة من مجهول إلى قسم الشرطة . ولكنى وجدت وسيلة للترويح عن النفس مأمونة العواقب فى مقهى « العائلات » حيث تجمعنى الأماسى ببعض الصحاب . رويت لهم تفاصيل الجريمة باعتبارها من بنات الخيال واستطلعت تصوراتهم عما يمكن أن يحدث . أجمعوا على أن مصلحة الجميع تقتضى إخفاء آثارها ، غير أن أحدهم قال :

— ويعثر على الجثة ولو بعد حين ، وربما بمصادفة لا تجرى على بال ، ثم ينترع القاتل من مكمنه الآمن ..

ضايقنى ذلك بطبيعة الحال . وخفت أن يتلاشى الأمل — بارتكاب الجريمة — فى حياة أشد معاناة . وما الحيلة وكلما نظر نحوى رجل توهمت أنه كان هنالك تلك الليلة ؟ . أو كلما سمعت وقع قدم ورائى تصورت أن أحدهم يتبعنى ؟ ! . وضاعف صاحبى من كربى عندما قال لى :

— أتذكر جريمتك الخيالية ؟ .. حكيتها لصديق مخرج تلفزيون فأثارت خياله وقرر أن يجعل منها نواة فيلمه القادم .

ضايقنى ذلك ، وآيسنى بصفة قاطعة من النسيان .

وضايقنى أكثر أن جاء المخرج مع صاحبى ذات مساء للمناقشة . قال :

— أنت صاحب الفكرة وتستحق مكافأة رمزية ، هل تستطيع أن تصيغها فى قصة ؟

فحركت رأسي نفيا فقال :

ـــ طبعا هي بصورتها الراهنة مستحيلة .

ـــ مستحيلة ؟ !

ـــ لا بد من باعث على الجريمة ، الحب والخيانة مثلا ، أو يكون القاتل مهزوز العقل فيتصور أنه بقتل امرأة من هذا النوع فهو يحارب الرذيلة مثلا ..

فندت عن منكبي حركة استهانة فقال :

ـــ لا جريمة بلا باعث ، ولابد أن ينال القاتل جزاءه أيضا .

فقلت وأنا أدارى غيظي :

ـــ هذا قانون الجرائم الخيالية ، أعني الروائية .

ـــ العمل يجب أن يكون معقولا وأخلاقيا .

فندت عن منكبي حركة الاستهانة فقال ضاحكا :

ـــ يبدو أنك لا تصلح أن تكون مؤلفا .

فقلت ساخرا :

ـــ ولكني أصلح أن أكون قاتلا ..

فقهقه ضاحكا ، وتفرس في وجهي بمودة وقال :

ـــ على كل حال فالفكرة تعد بقصة جيدة إذا اهتدينا إلى باعث مثير ومقنع واقترحنا خطة محكمة للكشف عن الجثة والقبض على القاتل .

فتساءلت بكآبة باطنة :

ـــ مثل ماذا ؟

ـــ الخطة المحكمة لا ترتجل ولكنها تسبق بتأمل وتفكير ومراجعة الأفلام

المشابهة ، غير أنه على سبيل المثال يمكن أن نتصور للضحية عاشقا مخلصا يحفزه اختفاؤها للعمل ، أو أن تكتشف الجثة بالمصادفة عن طريق بستانى الحديقة أو صياد فى النيل ، الفروض هنا لا حصر لها .

انتهت المناقشة وانتهى اللقاء فسقطت فى دوامة الظنون . وغلبنى ميل جامح لملاحظة الناس والأشياء . أسير متمهلا رغم الزحام أو أجلس قريبا من الطريق لأتصفح الوجوه والحركات ووسائل المواصلات والسلع وواجهات المحال والمبانى . أتصفحها بعناية عالم مكلف بوصفها وتحليلها .

ووجدتنى وجها لوجه مع المعلمة فى بقالة السعادة بشارع البستان . رغم السيادة والخبرة والدهاء شحب لونها وانهزمت أمام خوف جاثم . تجاهلتنى فخانها الاضطراب غير أنه لم يلمس هزيمتها سواى . ولما انتهينا من التسويق وقفنا أمام الدكان متقاربين فقالت همسا :

ــ ها أنت حقيقة لا خيال .

نظرت نحوها كالمنكر فتساءلت :

ــ لم فعلت فعلتك المنكرة ؟

تساءلت كالداهش :

ــ حضرتك تكلميننى ؟

فمضت عنى وهى تقول :

ــ منك لله !

كدت أضحك ، وغمرنى إحساس بالأمان ، بل فكرت فى تكرار التجربة فى بيت جديد . غير أنه كان إحساسا عابرا . وارتددت إلى

الملاحظة والغوص فى صميم الأشياء . وفى أوقات الفراغ أتذكر قول المخرج «الفروض لا حصر لها » . هذه هى الحقيقة الغائبة عن ملاحظتى ، ولكنها تتضارب فى عقل أو أكثر ليل نهار . يوجد فاعل أصلى هو أنا ، وشركاء هم المعلمة ومن ساعدها على إخفاء الجريمة وتوجد الضحية أيضا . لايمكن أن تبقى هذه الأشلاء مبعثرة إلى الأبد . وغير محتمل أن أظل منفردا بنفسى بلا نهاية . وقمت بزيارة غير متوقعة للمخرج فى مكتبه . استقبلنى بابتسامة عريضة قائلا :

— حلت المشكلات كلها تقريبا .. فأعلنت رضاى متمتما :

— مبارك !

— وجدنا الخطة المحكمة ، اكتشفت الجثة وقبض على المعلمة ، وقرأ القاتل قصته خبرا فى الجرائد فقرر الانتحار ، ترى ما رأيك فى أفضل وسيلة للانتحار ؟

فاقشعر بدنى وتساءلت :

— ماذا تقصد ؟

— نحن أمام عدة اختيارات ، ضع نفسك فى مكانه فماذا كنت تختار ؟

فازدردت ريقى وقلت :

— أخفها ألما !

فقال ضاحكا :

— أنت تفكر فى نفسك ولكنى أفكر فى أمرين ، أولا أشدهما تأثيرا فى الجمهور ، وثانيا أصلحهما من الناحية الجمالية للكاميرا !

وقلت لنفسى : يا له من رجل سعيد !

الفهرست

مؤلفات الأستاذ نجيب محفوظ

اسم الكتاب		تاريخ اول طبعة		تاريخ آخر طبعه
مصر القديمة		١٩٣٢		
همس الجنون	مجموعة	١٩٣٨	العاشرة	١٩٧٩
عبث الاقدار	رواية تاريخية	١٩٣٩	العاشرة	١٩٨٢
رادوبيس	رواية تاريخية	١٩٤٣	العاشرة	١٩٨١
كفاح طيبة	رواية تاريخية	١٩٤٤	العاشرة	١٩٧٩
القاهرة الجديدة	رواية	١٩٤٥	الثانية عشرة	١٩٨٤
خان الخليلي	رواية	١٩٤٦	العاشرة	١٩٧٩
زقاق المدق	رواية	١٩٤٧	العاشرة	١٩٨٢
السراب	رواية	١٩٤٨	الثانية عشرة	١٩٨٤
بداية ونهاية	رواية	١٩٤٩	الرابعة عشرة	١٩٨٤
بين القصرين	رواية	١٩٥٦	الثانية عشرة	١٩٨٣
قصر الشوق	رواية	١٩٥٧	الثانية عشرة	١٩٨٤
السكرية	رواية	١٩٥٧	الحادية عشرة	١٩٨٤
اللص والكلاب	رواية	١٩٦١	التاسعة	١٩٨٠
السمان والخريف	رواية	١٩٦٢	الثامنة	١٩٨٤
دنيا الله	مجموعة	١٩٦٢	الخامسة	١٩٧٨
الطريق	رواية	١٩٦٤	الثامنة	١٩٨٤
بيت سيء السمعة	مجموعة	١٩٦٥	السابعة	١٩٨٣
الشحاذ	رواية	١٩٦٥	السابعة	١٩٨٢
ثرثرة فوق النيل	رواية	١٩٦٦	السادسة	١٩٨٣
ميرامار	رواية	١٩٦٧	الخامسة	١٩٧٩
خمارة القط الاسود	مجموعة	١٩٦٩	السابعة	١٩٨٥
تحت المظلة	مجموعة	١٩٦٩	السادسة	١٩٨٤

اسم الكتاب		تاريخ أول طبعة	تاريخ آخر طبعة	
حكاية بلا بداية ولا نهاية	مجموعة	١٩٧١	السابعة	١٩٨٧
شهر العسل	مجموعة	١٩٧١	السادسة	١٩٨٢
المرايا	رواية	١٩٧٢	الخامسة	١٩٨٠
الحب تحت المطر	رواية	١٩٧٣	الرابعة	١٩٨٠
الجريمة	مجموعة	١٩٧٣	الخامسة	١٩٨٤
الكرنك	رواية	١٩٧٤	السابعة	١٩٨٦
حكايات حارتنا	رواية	١٩٧٥	السادسة	١٩٨٦
قلب الليل	رواية	١٩٧٥	الثالثة	١٩٨١
حضرة المحترم	رواية	١٩٧٥	الرابعة	١٩٨٣
ملحمة الحرافيش	رواية	١٩٧٧	الرابعة	١٩٨٥
الحب فوق هضبة الهرم	مجموعة	١٩٧٩	الرابعة	١٩٨٧
الشيطان يعظ	مجموعة	١٩٧٩	الرابعة	١٩٨٧
عصر الحب	رواية	١٩٨٠	الثانية	١٩٨٧
أفراح القبة	رواية	١٩٨١	الثالثة	١٩٨٧
ليالي ألف ليلة	رواية	١٩٨٢	الثالثة	١٩٨٧
رأيت فيما يرى النائم	مجموعة	١٩٨٢	الثالثة	١٩٨٧
الباقي من الزمن ساعة	رواية	١٩٨٢	الثانية	١٩٨٥
أمام العرش (حوار بين الحكام)		١٩٨٣	الثانية	١٩٨٥
رحلة ابن فطومة	رواية	١٩٨٣		
التنظيم السري	مجموعة	١٩٨٤		
العائش في الحقيقة	رواية	١٩٨٥		
يوم مقتل الزعيم	رواية	١٩٨٥		
حديث الصباح والمساء	رواية	١٩٨٧		
صباح الورد	مجموعة	١٩٨٧		

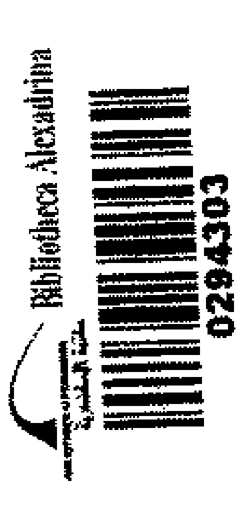
تحت الطبع

قشتمر	رواية
الفجر الكاذب	مجموعة

رقم الإيداع ٣٤١٨

الترقيم الدولى ١ — ٠١١٦ — ١١ — ٩٧٧

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

الثمن ٣٥٠ قرشا

To: www.al-mostafa.com